فتاة قوطية
وقصص اخرى
عبد العزيز أبوالميراث

فتاة قوطية

– المؤلف –

عبد العزيز أبو الميراث

– مُصمم الغلاف –

ميسرة الدندراوي

– المراجع اللغويّ –

مهند محمـــود

جميع حقوق النشر الإلكتروني

محفوظة لصالح [دار رواية للنشر الإلكتروني]

وأي إعادة نشر إلكترونية دون وجه حق تعرض صاحبها للمساءلة ..

موقع الدار على الشبكة العنكبوتية ..

http://rewaya.tk

إهداء

إلى (فاطمة عبد الرحمن) ؛ (د.محمد الدواخلي) ؛

(أحمد رشاد) ؛ (عبد الصمد الغزواني) ؛(أحمد الحلواني)

وكل أعضاء منتدى (دار ليلى – دايموند بوك).

لتشجيعاتهم، انتقاداتهم، نقدهم ومجاملاتهم، أهدي إليهم هذا العمل.

فهرس المجموعة

العجل 5

الورود الحمراء 10

هل يوجد مصاصو الدماء حقا ؟ 22

القرون 26

باب الفيلا 33

الجرّاح 37

25 قرشا 43

بوجلود 50

جليسة أطفال 54

أنتم أيضا ستموتون 61

الذي فعلناه 67

حادثة سير 73

فتاة قوطية 80

العجل

قلّب الضابط بعصا في الفرن الطيني الكبير بتوتر، بينما هو ينتظر العمدة الذي كان يجر الخطو ويكاد يتعثر في جلبابه. كانت الشمس قد توسطت كبد السماء، وصدى الخبر قد انتشر في القرية حتى أقصى بيت فيها.

- أصحيح ما سمعته أيها الضابط ؟

- للأسف، قال الضابط وهو ينظر إلى العمدة بوجه متهجم، ويشير للخفر بدخول البيت.

- يا للفظاعة !!

• • •

- هل تظنين أنه نائم ؟

تصغي)بدوية(السمع، تحاول التقاط صوت آخر غير طرقعة الأعواد في الفرن الذي تسخنه استعدادا لطهو الخبز ..

- إنه نائم .. أنا متأكدة..

- هل ضربك ؟

- لا

- لقد قلت لي أنه يضربك

- لقد كان سكرانا جدا وهو عائد من عند(حورية) الغازية كعادته كل ليلة .. لم يجد الوقت لذلك .. على كل حال .. سيضربني حين يستيقظ .. هو يفعل ذلك كل يوم

كان (إبراهيم) يحترق، في الأربعين من عمره، أسمر نحيفا كعود ذرة، مراهق عجوز لا يستطيع كبح مشاعره طويلا.

كانت عيناه تعكسان اللهب الأصفر للنار التي تحتفل في أعواد الفرن الكبير بشكل ملفت، واحد من تلك الأفران الطينية القديمة التي أصبحت تراثا وقد عوضها الناس بأفران الغاز، أو الأفران الكهربائية.

- اذهبي وانظري هل هو نائم فعلا ؟

تنهض (بدوية) بكسل، مسلوبة الإرادة، دمية ميكانيكية، تصعد السلم البسيط الذي يفضي إلى غرف العلية. تفتح بابا بحذر، قبل أن تهبط.

- إذن ؟؟

- إنه ملقى كالعجل في السرير .. يشخر

ينفجر (إبراهيم) في وجهها انفجارا مكتوما :

- أنت تثيرين أعصابي .. لم أسألك هل يشخر .. أسألك هل ينام ؟ .. أنا خائف منه ذلك الوغد

تجلس (بدوية) لا مبالية بانفجاره. كانت على العكس من (إبراهيم)، بدينة، بيضاء البشرة، في الثلاثين من عمرها لكنها تبدو أصغر وأجمل وقد حافظت على جمالها طبيعيا دون كيمياء.

ينظر لها (ابراهيم) بضيق دون أن يقدر على أن يحمل ضدها ضغينة

- هل تفضلينه هو ؟ .. قولي

- لا تنزعج .. وتعال لتنام

- لا .. يجب أن نتحدث

- لكننا تحدثنا في هذا عشرات المرات .. ماذا تريد بعد ؟ .. ماذا نستطيع فعله ؟ .. هو يملك كل شيء .. وأنت .. وأنا .. لا شيء

- لا شيء .. لا شيء .. يهز (ابراهيم) رأسه وهو يشد على أسنانه قهرا، عيناه مشدودتان للنار التي ترقص سعيدة في فرنها الكبير ..

كان يحب (بدوية)، لكن أباها أبى أن تكون لغير (يحيى)، أخوه الذي يكرهه أشد ما يكون الكره.

ويخافه كالموت ..

هو متأكد من أن أخاه (يحيى) على علم بعلاقته بـ(بدوية)، والتي استمرت رغم زواجها، لذلك هو خائف ..

وغاضب.

• • •

- لن يستمر هذا طويلا .. يجب أن تختاري .. أنا أم أخي ؟
- لكنك أنت من أريد يا (ابراهيم) ..
- إذن لتثبتي ذلك .. قوليها له .. أطلبي الطلاق
- لكنه سيضربني من جديد
- إذا فعل .. فسأريه

• • •

لم تستطع بدوية مواجهة (يحيى). فزوجها كان فظا مرعبا، والعلامات التي على جسدها خارطة واضحة الملامح تشرح تاريخ وجغرافية الرعب الذي تعيشه يوميا.

سبق لها وحاولت أن تشكو لضابط القرية معاملة زوجها، لكن الأخير وإن تعاطف معها، فإنه لم يستطع فعل شيء حقيقي لإنقاذها. فـ(يحيى) وغد اعتاد ارتياد السجون، وصار لا يخاف من تهديد أو زجر، إلى جانب صداقته مع العمدة الذي تجمعه به أمور عديدة ومصالح.

لذلك انتظرت (إبراهيم) بعد منتصف الليل. كان (يحيى) قد عاد للتو من عند (حورية) الغازية مخمورا ونام كالعجل فوق السرير.

- أخي كالعجل .. إنه يستحق الذبح كالعجل

فكرة قتل أخيه كانت تلح عليه منذ مدة. اتخذ (إبراهيم) قراره وعيناه ما تزالان مشدودتان للنار المتألقة في الفرن، هو أقل بنية من أخيه ولن يصمد أمامه في قتال مباشر، لذا يجب أن ينال منه غدرا.

قال لـ(بدوية) فجأة والأخيرة منهمكة في تقليب أعواد الفرن المتوهجة :

- سنقتله

صرخة مكتومة من حلق المرأة المسكينة ..

هؤلاء الرجال !!

كم يخيفونها !!

كانت (بدوية) خائفة من (يحيى) زوجها الوحشي. لكنها اكتشفت أن أخاه لا يقل عنه وحشية، لذلك واصلت انكسارها الداخلي.

- جدي لي مطرقة يا (بدوية)

وتأتي (بدوية) بمطرقة، يمسكها جيدا بيده اليمنى ويأمر.

- افتحي الباب يا (بدوية)

وتفتح (بدوية) الباب، يصعد (إبراهيم) السلم تتبعه هي مرعوبة.

على السرير، جسد (يحيى) يشخر بسعادة غير واع، ثلاث ضربات عنيفة بالمطرقة على رأسه تفاجئه في نومه العميق، لا يتحرك قيد أنملة، ترتمي (بدوية) عليه وهي ترتجف

تصرخ فجأة :

- إنه لم يمت

لا، لم يمت، يستبدّ الغضب ممزوج خوفا بـ(إبراهيم) فيرمي المطرقة جانبا ويسرع نحو المطبخ، يحضر أكبر سكين فيه، وتنظر (بدوية)، تنظر وتنتظر، تشاهد كل شيء حتى اللحظة الأخيرة، حتى أنها ستساعد مرة أو مرتين.

قال (إبراهيم) :

- أخي كالعجل .. يجب أن يذبح كالعجل

وذلك ما فعله. ذبح (إبراهيم) أخاه (يحيى)، وقطع اطرافه. استغرق الوقت اللازم وملأ دلاء ثلاث.

بعد ذلك، حرق الأطراف في نار الفرن الكبير، كان و(بدوية) يراقبان النيران تلتهم اللحم بين الجمر الملتهب، وأخذا يضيفان الأعواد الجافة، ويقلبان الأطراف باستمرار وبطء رهيبين، حتى فنت تماما.

ولم يتخلصا حتى من الرماد.

• • •

حين استفاق (ابراهيم) من غفوة قصيرة، كان آخر ما يذكر أنه استلقى مرهقا بجوار الجسد الأبيض الشهي لـ(بدوية). تحسس بيده الفراش جواره لكنه لم يجدها.

كان يحس بألم في رأسه، وكأن أحدهم ضربه بعصا غليظة.

فتح عينيه ليتسلل الصوت إلى أذنه، لم يتبينه لوهلة، لكن ذاكرته أسعفته وهو يرى الشخص الواقف أمامه يحيط كتف (بدوية) بذراع، ويمد ذراعه الأخرى بيد تحمل مسدسا مشهرا بوجهه.

شخص ضابط القرية.

كان يقول لـ(بدوية) بثقة :

- لقد قلت لك أن الأمور ستسير على ما يرام.

أما هي فكانت ترمق الضابط بنظرة، نفذت إلى قلب (ابراهيم) كرصاصة. وعقله بدأ يستوعب الخيانة، والخدعة التي وقع فيها حتى عنقه.

قال الضابط ساخرا :

- لحسن الحظ أنني كنت بالجوار لأنقذك من همجيّة (ابراهيم)، الذي أراد قتلك بعد اكتشافك جريمته الوحشية في حق أخيه. لن يتخيل أحد أن لـ(بدوية) الطيبة الساذجة يد في قتل زوجها. ألا ترى معي يا (ابراهيم) أن رصاصة واحدة تكفي؟

ودون حتى أن ينهض من الأرض بعد أن تجمدت قدماه من وقع الصدمة، نظر (ايراهيم) لـ(بدوية) وهو ما زال غير مصدق. قبل أن تدوي تلك الرصاصة مع صياح ديك من بعيد، ويشعر (ابراهيم) بها تخترق قلبه بالفعل كآخر ما يشعر.

الورود الحمراء

ـ (1) ـ

أربعة أشهر بالضبط مرت على اختفاءها.

انشغل (سامي) بسقي زهور الحديقة ، وهو يراقب بين الفينة والأخرى صغيره (تامر) ذي السنين العشر ، الذي كان يجلس منعزلا تحت ظل الشجرة العجوز التي تنتصب وسط الحديقة ..

كان (تامر) يراقب بشغف وانبهار مجموعة من الورود الحمراء الكبيرة التي نبتت بشكل غريب ومكثف تحت ظل الشجرة.

كان (سامي) يعرف أن ابنه ..

مثله ..

يفكر فيها في تلك اللحظة.

هذه الحديقة الجميلة ..

كانت هي من زرع زهورها ..

هي من اعتنى بها كطفل ثان ..

لقد منحتها حبها ..

ووقتها ..

وربما جزءا منها أيضا.

إنه يحس بها قريبة منه هنا ، وربما ابنه أيضا ينتابه نفس الإحساس ..

لذلك يقضيان سويعات فراغهما في هذا الفضاء الجميل المريح ..

يتنفسان رائحة عطرها في شذى الورود الحمراء العبقة ..

يحسان بملمس يديها في بتلات الورود الطرية الندية ..

يسمعان صوتها العذب في أزيز الريح وهي تعبر بين الورود الحمراء ..

أحس (سامي) بالتعب بعد أن فرغ من سقي الحديقة ..

ونثر السماد ..

وتشذيب الأغصان ..

ونزع الأعشاب الطفيلية ..

لكنه كان سعيدا ..

وأحس بالرضا ..

لأنه يفعل هذا ..

من أجلها.

نزع قفازيه المتسخين واستلقى على الأرض تحت ظل الشجرة الكبيرة التي تتوسط حديقة الفيلا ،

وأغمض عينيه ..

هذه الشجرة شهدت أحلى أيامه معها ..

هي تحمل حتى الآن إسميهما المنقوشين على جذعها ..

كم لعبا معا حولها ..

كم كانا سعيدين ..

طفلين سعيدين شقيين.

وهو مسترخ تماما ..

شعر بابنه يستلقي بجانبه دون كلمة ..

فاحتضنه بحب ..

قبّل رأسه ..

وراحا معا ..

في إغفاءة ..

ـ (2) ـ

حين استيقظ (سامي)، أحس بصداع رهيب في رأسه ..

وانتفاخ مؤلم

ولما أراد أن يمسك رأسه بألم، تنبه إلى أنه مقيد

عندما استعاد صفاء ذهنه كلية وجد نفسه مقيدا بإحكام إلى عمود خشبي في قبو الفيلا تحت النافذة الصغيرة التي تطل على الحديقة ..

وعلى ضوء الشمس المنبعث من النافذة اكتشف برعب ابنه الملقى أرضا مكمم الفم مقيد اليدين والرجلين ..

وقبل أن يتساءل عما يحدث شعر برجل في طرف الغرفة ينادي :

- (عرفة) .. لقد استفاق

وسمع خطوات (عرفة) هذا تقترب و الرجل الأول يسبقها إليه قائلا بسخرية :

- صباح الخير يا حبيب والدتك !

- من أنتما ؟ .. وماذا تريدان ؟

حك الرجل رأسه وهو يرد قائلا :

- هذا يتوقف عليك أنت ؟

- ماذا تقصد ؟؟ .. لا أفهم .. خذا كل ما تريدان وغادرا .. لكن أرجوكما لا تؤذياننا أنا وابني

ضحك الرجل بنفس السخرية والرجل الآخر (عرفة) يبرز من خلف ظهره قائلا :

- ألم أقل لك إنه يخفي شيئا يا (خليل) ؟

قال (سامي) بدهشة وخوف :

- أي شيء سأخفي أنتما الاثنان ؟ .. أخشى أنكما أخطأتما الشخص ؟

كان كل ما يهمه ألا يؤذيا ابنه. فليأخذوا أي شيء ويتركانهما سالمين.

تبادل الإثنان نظرة ساخرة ..

الأول (خليل) نحيل طويل ذو شارب يبدو كبيرا وسط وجهه الصغير بينما الآخر (عرفة) على

العكس تماما قصير بدين أصلع وله عينان شبيهتين بعيني ضفدعة ..

قال (خليل) وهو يجر كرسيا خشبيا ليجلس عليه :

- لا تلعب معنا يا هذا .. أنت تعرف بالضبط ما نحن هنا لأجله .. وثق بأننا لن نترككما أنت وابنك .. هه .. وابنك .. حتى ننال ما ننشده .. ابنك حتى الآن ما زال مخدرا فقط .. فلتحافظ عليه قطعة واحدة ..

لوح (عرفة) بمطواة قرن غزال في فوق جسد الطفل الفاقد الوعي وقال :

- فكر جيدا في قرارك .. ولا تتهور ..

انتفض قلب (سامي) بين ضلوعه ..

إلا (تامر) ..

إلا ابنه ..

ماذا يريدون منه بحق الله ؟

- لا أرجوك .. ليس ابني .. سأفعل ما تريدان .. لكن اتركا ابني وشأنه

أعاد (عرفة) مطواته إلى جيب سترته المهترئة وهو ينظر لزميله بظفر .. وقال الأخير :

- إذن ؟؟

قال (سامي) بخوف غير مدرك ماذا يحصل :

- إذن ماذا ؟

نظر(خليل) لـ(عرفة) بغضب، وقال (عرفة) :

- من الواضح أنك ستتعبنا .. ستضطرنا لاستعمال أساليب لن تعجبك.

واقترب منه قائلا :

- كهذه.

وجمع قبضته اليمنى ليفجرها في وجهه كلكمة سريعة.

شعر (سامي) بألم الضربة فظيعا، وأحس بمذاق الدم ساخنا في فمه وحاول قول شيء ما لكن القبضة عادت تلكمه بقوة، أحس معها بالألم مضاعفا، وبأحد أسنانه تستقيل من فكه العلوي.

وضع (عرفة) كفه خلف أذنه وقال بمسرحية :

- ماذا ؟؟ .. هل كنت ستقول شيئا ؟؟

- لو تخبرانني بالضبط ماذا تريدان ؟؟ .. أرجوكما .. فقط أخبراني ماذا تريدان.

قال (سامي) بصعوبة واللعاب يسيل من شفتيه أحمرا بالدم، يحس بالنار تشتعل في فمه وتنتشر حتى رأسه ألما فظيعا.

تبادل المجرمان نظرات بنفاذ صبر، وقال (خليل) وهو ينهض :

- حسن .. ما دمت تريد أن تتذاكى .. سنخبرك.

وقال وهو يشير لـ(عرفة) بالجلوس :

- أنت تدعى (سامي جابر) .. مهندس .. أليس كذلك؟

قال (سامي) :

- نعم.

- منذ ما يقرب من أربعة أشهر .. أخذت تعكف في البيت وتكاد لا تخرج إلا لماما .. يقول البعض إنك مكتئب لاختفاء زوجتك المريب .. يقولون إنك تحبها كثيرا ولم تتحمل فراقها ..

وقال بسخرية وهو ينظر لـ(عرفة) :

- أراهن أنها هربت مع عشيق لها وتركته مع الصغير

- اصمت أيها الوغد .. قال (سامي) بغضب وكراهية

لكن (خليل) بدا جامدا وقال بقسوة :

- مؤلمة الحقيقة .. أليس كذلك ؟؟ .. أراهن كذلك أنك تعرف ذلك وإلا لماذا لم تخرج للبحث عنها بعد أن تركت الشرطة البحث في الأمر .. عاجزة عن إيجاد أي أثر لها؟.

ثم أردف وهو يرى وجه (سامي) يحتقن كبركان على وشك قذف الحمم :

- هذا يجرنا للحديث عما كنت تفعله في الحديقة.

ارتفع حاجبا (سامي) توترا، وأحس (خليل) بالظفر وهو يقول مبتسما بخبث :

- اهتمامك الزائد بحديقة الفيلا .. كان ليثير شكوك أي شخص .. أنت تقضي معظم الأوقات تعمل بالحديقة .. تشتري معدات كثيرة وتشحن العديد من أكياس سماد قوي للمزروعات .. مجهود كبير حتى بالنسبة لمهووس بالحدائق .. لقد راقبناك كثيرا، ولم نعثر على سبب واضح لما تفعله ..

ونظر لـ(عرفة) مردفا :

- لـ(عرفة) فكرته الخاصة بهذا الشأن ..

وقال وهو يرى عينا (سامي) تجحظان :

- كيف هي المقبرة التي عثرت عليها ؟؟

- أية مقبرة ؟؟ قال (سامي) وعلى وجهه ملامح دهشة حقيقية مستنكرة.

قال (خليل) بغضب :

- المقبرة التي اكتشفتها .. وبدأت تستخرج نفائسها كل هذه الأيام التي اعتكفت فيها بالبيت .. كلنا نعلم أن هذه المنطقة قريبة من موقع أثري حديث، وهناك بعثة فرنسية اكتشفت مقابر على بعد كيلومترات من هنا.

وقال (عرفة) :

- لقد فتشت الفيلا كلها ولم أعثر على قطعة أثرية واحدة من المقبرة .. أين خبأت الكنز ؟

- كنز ؟؟ .. لم أكتشف أية مقبرة يا هذا .. لا بد أنكما مخطئان .. لا شيء بالحديقة .. قال (سامي) بتوتر

نظر (عرفة) إلى (خليل) كأنما يستشيره، وبدت عليهما الحيرة، يتساءلان هل أخطأ فريستهما فعلا؟؟ قبل أن يقول (خليل) ببرود :

- بماذا تفسر ما تفعله بالحديقة إذن ؟؟

- عمل الحدائق .. ماذا يضير لو اهتممت بحديقتي أكثر ..؟

قال (سامي) متوترا وهو يتمنى لو ينتهي الكابوس ..

قال (عرفة) بسخط :

- أنت تصر على إرهاقنا وحسب .. وتذكر أن لهذا ثمنا ..

وتوجه نحو ركن القبو وحمل معولا ومجرفة، مدّهما لـ(خليل) قائلا :

- سنقلب الحديقة كلها .. إياك أن تظن أنه بردم المكان كله ستخفي أثر المقبرة .. سنجدها .. ونعود .. لنؤدبك

وكرر الكلمة الأخيرة بسخرية، بينما هو يخرج من جيبه قماشا ويكمم فم (سامي) بقسوة .. وخرج مع شريكه من القبو مغلقا الباب بقوة ..

ـ (3) ـ

حين رجع (عرفة) و (خليل) من الحديقة كانا مرهقين والطين يملأ ملابسهما ويلطخ جسديهما اندفع (عرفة) نحو (سامي) ونزع كمامته بعنف حتى أن الطين دخل فم الأخير وامتزج بدمائه المتخثرة ..

وأحس (سامي) بألم فظيع جعله يشهق وقبضة (عرفة) تغوص في معدته قبل أن يقول :

- ماذا تخفي أيها الوغد .. قل ؟

وقال (خليل) وهو يسقط على مقعد متهالكا :

- لقد قلبنا أرض الحديقة كلها يا (عرفة) .. وانتزعنا ورودها ونباتاتها .. لا يوجد شيء .. الرجل كان محقا

قال (عرفة) غير مقتنع :

- لا يا (خليل) .. أنا متأكد من أن الوغد لديه سرّ .. صدّقني لدي حاسة لا تخيب في هذه الأمور.

قال (سامي) :

- لماذا لا تصدق زميلك .. قلت لك لا يوجد كنز.

قال (عرفة) بغتة وهو يجذب (سامي) من شعره :

- آه .. نعم .. هذا طبيعي .. أنت لم تعثر على مقبرة وإنما على صندوق كنز .. أو جرة من الذهب .. لذلك لم نجد أثرا في الحديقة.

قال (سامي) بوهن وهو يوشك على فقدان الوعي من الألم :

- لكنكما فتشتما الفيلا .. ولم تعثرا على شيء.

قال (عرفة) بحدة :

- لن تنقصك الحيل لتخفي الكنز جيدا بحيث لا يبدو ظاهرا إلا لمن يعرف مكانه .. ولكنك ستخبرني .. أليس كذلك ؟

وترك شعر (سامي) ليسقط هذا أرضا ، قبل أن يندفع نحو ابنه الملقى أرضا فاقد الوعي ويجذبه من ذراعه صارخا :

- ستقول لي أم أذبح ابنك أمام عينيك ؟؟

- لا .. أرجوك .. لا .. صرخ (سامي) ودموعه تسيل عن عينين محمرتين

جذب الرجل مطواته بالفعل ولوح بها لتبرز الشفرة القاتلة، وقال (خليل) بتوتر :

- كفى يا (عرفة)

صرخ :

- أصمت أنت يا (خليل) .. لن يتكلم هذا الوغد .. حتى يرى رأس ابنه مفصولة عن جسده .. هه .. ماذا قلت أيها الوغد ؟؟

- سأقول .. سأخبرك .. أرجوك .. فقط أترك إبني .. قال (سامي) منهارا

نظر (خليل) لـ(سامي) بدهشة، بينما برقت عينا (عرفة) ظفرا، ولوح بالمطواة على رقبة الصبي قائلا :

- أنا أنتظر ..

كاد (سامي) يفتح فمه ودموعه تغرق وجهه، حين صرخ (خليل) :

- (عرفة) .. ما هذا بحق النبي .. ما هذا ؟؟

- ماذا ؟؟ قال (عرفة) بغضب وهو يلتفت له.. ألا تصمت يا (خليل) قليلا ؟

قبل أن تتسع عيناه رعبا ويترك الصبي يسقط أرضا.

فما رآه كان غريبا جدا .. رهيبا .. جدا ..

ـ (4) ـ

تراجع (خليل) نحو طرف القبو و(سامي) ينظر بدوره مندهشا إلى باب القبو الذي تمتد منه أغصان خضراء ..

تبدو كأغصان نباتات اللبلاب المتسلق، بمئات الأشواك.

وكانت تتحرك كأفاع حقيقية.

شرعت الأغصان تملأ فضاء القبو على الأرض والجدران والسقف، واللصان يحاولان الابتعاد عن طريقها، لكن هيهات.

سرعان ما التفت الأغصان حول أقدامهما ورفعتهما لأعلى مقلوبين، كان (خليل) يصرخ بهيستيريا، بينما حاول (عرفة) استعمال مطواته وقطع بعض الأغصان الطرية، لكن غصنا آخر أمسك يده وجذبها بقوة لتسقط المطواة أرضا والرجل يصرخ بملء حنجرته ..

وهنا، رأى (سامي) وقلبه يكاد يقفز من بين ضلوعه قفزا، ذلك الشيء يدخل من باب القبو ببطء كابوسي ..

أو تلك الأشياء ..

ورود حمراء قانية بلون الدم تتحرك في كتلة حية ..

نفس الورود التي كانت زوجته المفقودة تزرعها ..

نفس الورود التي كان يسقيها كل يوم ..

دبت فيها الحياة فجأة ..

أخذت كتلة الورود تتجمع في وسط الغرفة تحيط بها أغصانها الشائكة وهي تتطوح في الهواء منذرة متوعدة ..

كان (سامي) يشعر بالرعب كما لم يشعر في حياته، وقلبه يوصيه بأن يعتني بنفسه لأنه سيرحل عنه قريبا من فرط الإثارة ..

في الواقع كان (سامي) خائفا من شيء آخر، جعل الدماء التي تسري في عروقه باردة كالثلج ..

فالتشكيل الذي شرعت تأخذه الورود ببتلاتها الحمراء القانية الندية، كان بشريا ..

برز الوجه النباتي للشيء وسط الغرفة، ووسط صرخات اللصين وقد فقد (عرفة) عقله تماما فشرع يضحك بهيستيريا ..

كان (خليل) أسوء حالا، وبدا كما لو أصيب بنوبة قلبية فقد تراخى جسده فجأة ..

حدق (سامي) في الوجه جيدا، ثم لمح ابنه (تامر) بطرف عينيه، كان ما زال فاقد الوعي وحمد الله لأن المخدر الذي حقنه به اللصان كان قويا كفاية لينام بهذا العمق، لم يكن من الصحّي أن يرى مثل هذه الأشياء ..

عينان خضراوان برزتا في التشكيل البشري للوجه ..

فم دقيق ..

أنف مستقيم ..

شعر (سامي) كأن خنجرا اخترق صدره فجأة ..

هو يعرف هذا الوجه ..

إنه ..

لزوجته ..

امتدت الأغصان الشائكة تلف حول (سامي) كأفاعي (كوبرا) في رقصة ناي محمومة، ولسع غصن منها بغتة قيوده فمزقها ببساطة ليجد (سامي) نفسه حرا، لم يصدق ..

نهض متحاملا على ساقيه. اقترب من الشيء، والأغصان ما زالت ترقص حوله حذرة ..

كانت العينان الخضراوان تحدقان فيه بشكل غريب، كطفل يحاول تذكر وجه شخص من العائلة ..

قال (سامي) مبهوتا :

- (خديجة) ؟؟

تراجع الشيء بغتة، كأنما ألقى (سامي) بقنبلة. وتراجع هو مذعورا، حتى أن الأغصان تحفزت حوله واستقامت كخناجر مصوبة نحوه ..

أخذ الشيء يتفحص جسده النباتي، وبدت على ملامحه إمارات الذعر ..

حين ..

انتهز (عرفة) انشغال الشيء واستعمل مطواته لتمزيق الأغصان، سقط أرضا وهو يصرخ بهيستيريا، عيناه متسعتان تبرزان بوضوح حالته العقلية، تخيل (سامي) أنه سينقض عليه ويغرز مطواته في بطنه يبقرها ..

لكن (عرفة) اختار هدفا آخر ..

(تامر) ..

توجه بعنف نحو الإبن يريد ذبحه حين بدت على الشيء إمارات الغضب فتوحش وجهه النباتي بغتة واندفعت الأغصان الشائكة تلتف حول معصمه الذي يمسك المطواة في اللحظة الأخيرة التي كادت

فيها تلمس الصبي، وأخذت الأغصان الشائكة تدور حول معصم (عرفة) كالمنشار، حتى .. بترت .. يده

سقطت يد اللص أرضا بالمطواة، دماء غزيرة تتفجر من موضع البتر، قبل أن ترفعه أغصان أخرى من قدميه ليبدو مرة أخرى بوضع مقلوب، وجذبته نحو الشيء الغاضب الملامح، حتى أصبح وجهه ملاصقا للوجه النباتي المتوحش ..

هنا، سقط (سامي) أرضا وجسده يرتجف كحفار آلي ..

فما حدث لـ(عرفة)، كان بشعا ..

مئات الأغصان الشائكة خرجت من فم الشيء، ومن حوله، أخذت تمزق جسد اللص تمزيقا ..

دخلت من فم (عرفة) المفتوح رعبا، وأنفه وعينيه وأذنيه، خرجت من حلقه وبطنه وصدره ومن جانبي عنقه. كان حمام دم. أخذت الأغصان تلف حول جسده بأشواكها المنشارية حتى سلخته كخنزير في مذبح ..

لم يملك حتى الوقت ليصرخ ..

حين انتهى الشيء من (عرفة)، ورمى ببقاياه الدامية في طرف القبو، إلتفت إلى (سامي)، وملامحه ما زالت تحمل إمارات الغضب القاتل ..

تراجع (سامي) بظهره حتى لامس الجدار، أحس بنهايته قريبة، وتمنى لو تكون أسرع من نهاية (عرفة). أسرع من نهاية (خليل) حتى ..

فجأة تمكنت منه الأغصان الشائكة وشرع يحاول التملص منها دون أن ينجح سوى في تمزيق جلده، واستسلم لها أخيرا وهي تحمله حتى اقترب من الشيء، عيناه تحملان غضبا رهيبا .. الإنتقام ..

جاءت لتنتقم، (سامي) متأكد الآن ..

أخذت الأغصان تلف ببطء حول رقبته وتضغط، وعينا الشيء الذي كان في وقت ما (خديجة)، تقتربان من وجه (سامي). أحس بأنفاس حارة بعطر الورود الحمراء التي تشكل وجهها. من يتصور أنه هو من كان يرعى هذه الورود ويقويها بالأسمدة ..

في الواقع كانت الأسمدة لهدف آخر ..

كان يريد أن يسرّع عمليات تحلل جثة زوجته المدفونة في أرض الحديقة، لذلك لم يكن يغادر الفيلا.

كان يخشى أن يكتشف أحد الأمر ويعرف مكان الجثة ..

ما زال يذكر كيف تورط في الأمر ..

كان (تامر) في المدرسة. وكان هو مع زوجته يتشاجران مشاجرة عادية ..

حين دفعها لتهوي أرضا. وتسقط، عفوا، في محاولة منها للتوازن، قطعة الديكور المعدنية الثقيلة تلك على رأسها ..

يغرق رأسها بالدماء وقد انبعج جزء منه. عن جرح عميق غائر.

وتموت على الفور ..

كان (سامي) خائفا من أن يقبض عليه، لذلك خطط لإقناع الجميع بأنها سافرت، واختفت.

دفن الجثة في الحديقة وأخذ يغرقها بالأسمدة الكيماوية ..

كان يرغب في تسريع تحلل الجثة لإخفاء معالم الجريمة، تماما ..

لذلك كان يعتكف بالفيلا. يهتم بحديقته كل ذلك الإهتمام ..

حين وصل بذكرياته تلك النقطة، كان الظلام قد بدأ يغلف عينيه، وهو يشعر بالدماء تسيل من عنقه .. ونظر بطرف عينيه نصف المغلقتين إلى (تامر) الذي تململ قليلا على الأرض وقد بدأ مفعول المخدر يختفي .. كاد يودعه في سره ..

حين ارتخت قبضة الأغصان الشائكة على رقبته، وأخذت تنسحب تدريجيا، ومعها الشيء النباتي نفسه، الذي كان ينظر أيضا إلى الصبي بعينين مترقرقتان بندى أخذ شكل دموع حارة، قبل أن تحين منه نظرة لـ(سامي) ويقول :

- فقط .. من أجله

وفي الثواني القليلة التالية، وقف (سامي) غير مصدق، يتحسس رقبته الدامية من جروح سطحية. اختفى الجسم النباتي حتى لم يعد له من أثر في المكان ..

تأمل لحظات بشاعة المكان، ثم أسرع نحو (تامر)، الذي بدأ يتململ في طريقه للإستيقاظ، يحمله إلى غرفته قبل أن يستفيق. وفكر أن عليه توا تنظيف القبو، وإصلاح حديقته التي خرّبها اللصان. سيضيف لها الكثير من السماد.

وسيعتني بها أكثر، وبورودها ..

ورودها الحمراء.

هل يوجد مصاصو الدماء؟

ويحل مساء سعيد ...

هذه العائلة الأمريكية مجتمعة حول التلفاز، الأب والأم يجلسان بحب على الأريكة بينما تستلقي البنت المراهقة على بطنها أرضا مركزة على الشاشة . وحده الابن العبقري ذو السنين السبع واقف كأنه يريد أن يقول شيئا

تقاطعه أخته قائلة لأبيها بحماس :

- بابا ... خمن ... فيلم السهرة سيكون عن ماذا ؟

ضحك الأب ضحكة صغيرة قبل أن يجيب :

- أنا أتابع التلفاز معك أيتها الشقية ... لقد أعلنوها للتو

ضمت الفتاة الوسادة إلى صدرها قائلة :

- عن مصاصي الدماء ... برررر .... أبي ... هل يوجد مصاصو الدماء حقا ؟

هنا أسرع الابن العبقري يقول لأبيه :

- أبي ... ابنتك هذه حمقاء

ضربته أخته بالوسادة بينما الأب يضحك.

سقط الطفل أرضا ، فساعده أبوه وحمله بين ذراعيه.

صرخ الطفل في أخته :

- هذا لا يمنع من أنك حمقاء ... وغبية

أسرع الأب بالحد من هذا الشجار غير المريح قائلا :

- كفى يا (مايكي) ... شرير ما تقوله عن أختك

قال الطفل باستهزاء :

- إنها تخاف من الأشباح ... لم تنم البارحة بعد مشاهدتها ذلك الفيلم السخيف ... رغم أنه لا وجود لشيء اسمه الأشباح.

انطلق صوت الأخت في تحد :

- هه ... و ما أدراك أنت يا ذا الرأس الكبيرة ؟... بأن الأشباح غير موجودة

وكأنما ينتظر السؤال، أسرع (مايكي) بالإجابة :

- لأنه أيتها الغبية ... الشبح لا يمكن أنت يمشي على الأرض ويخترق الجدران، إذا كان يمشي على الأرض فهو يطبق قوة ، وإذا كان يخترق الجدران فهو لا يطبق أية قوة

قالت الفتاة في استنكار غير فاهمة :

- ما ... ماذا تقول أيها المجنون ؟ ... وعن أية قوة تتحدث؟

قال لها الأب وهو ينظر لإبنه بحب وفخر :

- هل تعرفين (سارا) ... إنه محق ... (مايكي) ملاكي أنت عبقري

بينما (سارا) تنظر لأخيها بحقد طفولي قال هو ساخرا:

- إنها الفيزياء أيتها الغبية.

قالت بتحد أكبر :

- عبقري هاا ..وستقول أيضا إن مصاصي الدماء غير موجودين

اشتعلت عينا (مايكي) وقال بحماس :

- نعم سأبرهن لك على ذلك

تبادل الأب والأم نظرة خاصة، ابنهما (مايكي) كان ، رغم سنه الصغيرة، عبقريا وبشاهدة كل مدرسيه، حتى أن مدرسة خاصة بالمتفوقين في (واشنطن) أرسلت إليه للإلتحاق بها

قال (مايكي) لأبيه :

- أبي ماذا نعرف عن مصاصي الدماء ؟

وكأنما هي لعبة، انطلق الكل يجيب :

- مصاص الدماء كائن ليلي ... ويتحول ليلا إلى خفاش ... أو دخان أخضر.

- مصاص الدماء يخاف من الثوم ... والصليب ... والماء المبارك.

- مصاص الدماء يمص دماء ضحاياه عن طريق غرز نابيه في أعناقهم.

- كل من يمص دمه مصاص دماء يتحول بدوره لمصاص دماء.

- لقتل مصاص الدماء تستخدم أسلحة فضية أو وتد من الخشب يدق على صدره.

والطفل لكل هذا يصغي بإنصات معملا عقله.

فجأة برقت عيناه وقال :

- أبي ... مصاص الدماء يتغذى على دماء ضحاياه الذين يتحولون بدورهم إلى مصاصي دماء ... لكن .. كم مرة يفعل ذلك ؟؟

فكر الأب وأخذ ينظر لزوجته كأنما يستنجد بها، لتقول هي :

- حسب ما قرأت ... مصاص دماء يمتص دماء ضحية كل شهر

فكر (مايكي) الطفل لحظة، ثم غاب في غرفته.

حين عاد بعد لحظات بآلته الحاسبة، كانت الفتاة منشغلة بالفيلم الذي كان على وشك البدء والأب والأم يتهامسان في حديث خافت.

قال (مايكي) لأبيه وهو يخفي الآلة الحاسبة خلف ظهره :

- لنفترض أنه يوجد مصاص دماء في الأول من يناير سنة **2006** أي قبل ثلاث سنوات ... تعداد سكان العالم إذ ذاك ، ودون خطأ كبير ، **6** ملايير

ثم أخذ الآلة الحاسبة وراح يقوم بعمليات رياضية تحت نظرات أبيه وأمه المترقبة قبل أن يقول :

- في الأول من فبراير **2006** سيكون لدينا مصاصي دماء وفي الأول من مارس **4** مصاصي دماء ... بعد سنة وهكذا ... بعد ثلاث سنوات مثلا ... تصوروا كم سيكون عدد مصاصي الدماء ... أكثر من **8** ملايير ... هل تصدقون هذا ؟ ... يا أبي لا وجود لمصاصي الدماء ... وإلا كنا كلنا مصاصي دماء

ابتسم الأب ابتسامة هادئة وشعر (مايكي) برجفة عنيفة وهو يرى النابين الطويلين المميزين في فم والده الذي قال :

- آه ... حقا؟؟

حوّل عينيه لوالدته جزعا، كانت تبتسم بذات النابين الطويلين ينزلان من فكها العلوي، أخته أيضا كانت تنظر إليه كاشفة عن نابيها وهي تنهض واقفة ببطء كدمية ميكانيكية.

لم يصدق (مايكي) ما يرى، إنه كابوس.

أتكون حساباته صحيحة لهذا الحد ؟ هل يوجد مصاصو الدماء حقا ؟

أسرع يجري كالمجنون نحو غرفته وهو يطلق صرخات رعب، أقلقت الأب بشدة وهو ينزع طقم

الأسنان البلاستيكية عن فمه، ويقول لإبنته في عتاب شديد :

- كنت أعلم .. ما كان علينا مجاراتك في لعبتك الحمقاء، بوضع هذه الألعاب البلاستيكية التي تجمعينها من علب رقائق الذرة (الكورن فلاكس).

ونهض على عجل ترافقه زوجته قائلة بخوف :

- لا بد أن الصغير يموت رعبا الآن .. لن أسامحك إذا وقع له شيء .. لن أسامحكما أبدا . (*)

(*) المعلومات الواردة في القصة عن استحالة وجود أشباح ومصاصي دماء هي نتيجة بحث قام به الفيزيائي (كوستاس افثيميو) من جامعة فلوريدا في محاولة منه لوضع حد لمثل تلك الخرافات. بعد أن أفاد إحصاء قامت به مؤسسة (جالوب) سنة 2005 بأن 20 بالمئة من الأمريكيين يؤمنون بوجود مثل هذه الكائنات الخرافية.

القرون

لعمي (رفعت) هواية غريبة حقا ..

كنت خارج الوطن. ولقد وصلني خبر اختفاءه بعد مدة طويلة. مرت بالضبط سنة ونصف. ولولا زيارة عمل قصيرة لما علمت شيئا. مررت مصادفة بمحامي العائلة السيد (عمر)، الذي استقبلني بالخبر المؤسف.

وفي سيارته السوداء القديمة، سألني دون أن يحول عينيه عن الطريق :

- لا أتصور كيف لم تكن على اتصال بعمك الوحيد؟ .. لقد بحثت في أوراقه كلها ولم أجد أي شيء يفيد في العثور عليك بعد اختفاءه .. حتى يئست من إيجادك وخلتك ميتا أنت الآخر.

قلت بدهشة :

- ميتا ..؟؟ وهل مات عمي فعلا ؟

مط شفتيه وقال :

- بماذا تفسر اختفاءه الغريب هذا إذن ؟ لقد قامت الشرطة بتحريات واسعة ولم تصل إلى أية معلومة .. كأن الأرض انشقت وابتلعته ..

قلت :

- أنت تعرف أن عمي كان كثير الأسفار.. ربما استهوته إحدى تلك البلدان التي يزورها لإشباع رغبته في هوايته المجنونة تلك .. فاستقر بها

نظر لي المحامي لحظة ولم ينطق بكلمة لفترة قبل أن يحسم رأيه ويقول :

- حسب الشرطة .. فعمك لم يغادر البلد قط قبل اختفاءه .. ولقد عثرنا على جواز سفره في مكتبه بالفيلا التي سنذهب إليها الآن

نظرت إليه بدهشة، أصبح أمر اختفاء عمي لغزا محيرا.

ثم دخلنا بالسيارة الفيلا الكبيرة التي يملكها عمي في أطراف العاصمة بعد أن شغل المحامي زر بوابتها بواسطة جهاز تحكم عن بعد.

لاحت لي نظرة إلى الحديقة الهائلة، كانت في اسوإ حال ..

قال المحامي وقد لاحظ شعوري :

- إضطررت لصرف البواب والخادم الوحيد بالفيلا .. لهذا تراها هكذا

دخلنا المنزل الفخم، وتذكرت بشيء من تأنيب الضمير، أنه سيكون لي في حالة ثبتت وفاة عمي، فقد كنت وريثه الوحيد.

كان بهو الفيلا كما ألفته رائعا فسيحا، كالقصور الأرستقراطية القديمة. نظرت للمحامي الذي كان يغلق باب الفيلا خلفه ويقول :

- طبعا لم يدخل المكان أحد منذ اختفاء السيد (رفعت) باستثناء الخادم ورجال الشرطة الذين فتشوا أرجاء الفيلا .. بمرافقتي بطبيعة الحال.

أخذت أسترجع ذكرياتي بالفيلا وأنا أتفحص المكان بشرود حالم، ولم يقاطع صمتي مشكورا المحامي إلا حين توقفت بذعر غريب أمام الغرفة المشؤومة.

قال المحامي وهو يحرك سلسلة مفاتيحه :

- تريد أن تلقي نظرة على المكان

بلعت ريقي بصعوبة وقلت بصوت مبحوح :

- نعم

فتح المحامي القاعة الرهيبة ودخلناها معا، بيد أن خوفي الطفولي من هذه القاعة لم يغادرني تماما.

ثم رأيت على الجدران تحف عمي الغريبة المخيفة.

عشرات القرون المحنطة لحيوانات من بقاع العالم كافة. في متحف أسود مقبض يثير فيّ شعورا بالخوف في كل مرة.

كانت تلك هواية عمي كما أخبرتكم ـ لم أخبركم بها قبلا ؟ .. حقا .. ؟؟ ـ

ما زلت أذكر هوس عمي بكل ما يحمل قرنين على رأسه، ينتزعهما منه ليحتفظ به. أكاد أجزم أنه يملك قرون أي حيوان على وجه الأرض. أخبرني أبي أن أخاه بدأ يجمع قرون الحشرات صغيرا، ثم قرون حيوانات المزرعة، التي لها قرون بالطبع.

ومع الوقت وبعد أن ورث ثروة ضخمة، بدأ يجوب العالم ويشتري كل غريب وعجيب من قرون الحيوانات، أو يصطادها بنفسه، فيحنطها ويحتفظ بقرونها. ولقد أضاع مالا ووقتا كثيرا في الولايات

المتحدة بحثا عن الأرنب ذي القرنين ليتوصل أخيرا إلى أنه أسطورة.

وكانت المحصلة هذه القاعة التي لن تجدها في أي متحف طبيعي في العالم.

كان المحامي يتفحص القرون الملتوية الغريبة لوعل من (منغوليا) على ما يبدو، ويقرأ اللوحات الصغيرة تحت كل قرنين، بينما كنت أراجع الكتب السميكة والموسوعات القديمة على رف خزانة خلف مكتب عمي تماما.

ويبدو أنني أطلقت صرخة استغراب عالية لأن المحامي قال وجلا :

- ماذا .. ماذا هناك؟

قلت مشيرا لمجموعة كتب :

- متى كان عمي يهتم بالسحر والشعوذة ؟

اقترب المحامي من الخزانة ليرى الكتب التي كنت أشير لها. مجموعة مجلدات عن العوالم الماورائية وعبدة الشيطان والسحر، حتى أن أحدها كان يحمل صورة للشيطان أكثر رعبا من كل القرون الغريبة في القاعة.

قال المحامي :

- أنت تعرف أن عمك كان قد مرض فترة .. قبل رحيلك مباشرة .. لقد تعب من كثرة السفر ولم يعد قلبه يحتمل .. بالقطع اقتنى وجمع كل القرون الممكنة في العالم .. ويبدو أن العلوم الميتافيزيقية كانت هوايته البديلة

رفعت حاجبي دهشة. عمي يغير هوايته الأبدية؟؟.. مستحيل ..

فجأة لمحت ذراعا تبدو داخل رف الخزانة حيث جذب المحامي الكتاب الذي كان يتصفحه وقلت بدهشة :

- ما هذا ؟

ثم جذبت الذراع بقوة لنكتشف أن الخزانة كلها كانت تهتز ..

تراجعنا للوراء وجلين حين غاصت الخزانة في الجدار خلفها قبل أن تنزاح يمينا كاشفة ممرا صخريا ينحدر لأسفل، هذه البيوت القديمة وأسرارها لن تكف عن إدهاشي.

كان هناك زر ضغطته فأنار سلسلة مصابيح الممر الذي يمتد عبر درجات نزلناها أنا والمحامي بحذر و فضول.

في الأسفل فوجئنا بقاعة صغيرة، يتوسطها مكتب خشبي يحتل سطحه شمعدان سداسي بغيض بشموع سوداء قميئة، وتتوزع عليه كتب ومخطوطات في فوضى عارمة. بضع براميل صغيرة أسفل المكتب تفوح منها رائحة البنزين.

ودولاب كبير يحتل الجدار في نهاية الغرفة، و ..

ونجمة خماسية هائلة مرسومة على الأرض مع رموز شيطانية .. رهيبة ..

أحسست بقلبي ينتفض فجأة كأن يدا جليدية عصرته في قبضتها عصرا بينما شعرت بيد المحامي ترتجف على كتفي وهو يقول بتوتر :

- لا يعجبني ما يحدث هنا .. هيا نغادر

استجمعت شجاعتي وقلت :

- ليس قبل أن نكتشف ماذا جرى هنا

اقتربت من مركز الدائرة الخماسية المرسومة على الأرض بلون أحمر غريب، وأقسم أنها كانت تتوهج، وأنا أعبرها إلى الدولاب الكبير.

كنت أشعر برغبة كبيرة وفضول رهيب لفتح الدولاب في نفس الوقت الذي أحسست فيه بأصوات تدعوني ألا أفعل، فقط لأكتشف أنه المحامي يصرخ بعصبية :

- لا تفعل .. ألا ترى أن شيئا غير طبيعي قد حصل هنا؟

قلت وأنا أكثر توترا لأن أعصابي كانت مشدودة كالزنبرك :

- لا تصرخ فيّ هكذا .. ارحل لو كنت خائفا.

ولم ينتظر لأتم كلامي فعاد القهقرى وهو يكاد يتعثر في الدرج.

بينما تحركت يداي إلى مقبض الدولاب وهما ترتجفان، أمسكت بالمقبض بقوة وقلبي قد ترك صدري إلى رأسي يدق جمجمتي بقوة وعنف.

ثم حسمت رأيي وفتحت الدولاب.

أذكر أنني وقفت مبهوتا للمنظر المهول، أشعر بالعرق باردا يتسلل من رأسي، يهبط من رقبتي، ويثير القشعريرة في ظهري.

شعرت برغبة هائلة في الصراخ رعبا، يكفي أن تعلم أن شعر رأسي الفاحم، وكما تأكدت بعد ذلك، صار أبيض بياض الثلج.

قدماي كانتا كما لو دقهما أحد بمسامير غليظة على الأرض، لم أحس بهما إطلاقا وعقلي مشدود لما أرى، لبشاعة ما أرى.

كانت هناك فجوة داخل الدولاب المثبت بالجدار، فجوة سوداء مقبضة، تبدو كسحابة من الشر. يتسلل منها قرنان حمراوان ذوا حجم وطول مرعبين.

الأفظع، والذي ألجم لساني حتى خلتني سأبتلعه، هو الجسد الذي كان القرنان يخترقانه: جسد العم (رفعت). صحيح أنه متفحم كلية أو كاد، لكن تقاسيم الوجه والنظارات الطبية المستديرة، نفت من نفسي كل شكّ.

كان جسد العم قد اختفى نصفه بالفجوة الكئيبة، التي أحسست بأنها تدور ببطء كدوامة سوداء، أو غيمة كئيبة في طريقها لإطلاق صاعقة.

حاولت تمالك نفسي، والتعلق ببعض المنطق الذي بدأ يتسرب مع وعيي. هناك أمر جلل حدث هنا. أدّى لهلاك عمّي، وربما وضعي في خطر أنا أيضا، الذي جئت هنا بملك إرادتي.

نقلت بصري في أرجاء الغرفة، وجسمي كله يرتجف، عرق نتن بارد يسيل من جبهتي. ماذا علّي فعله ؟ ماذا سأفعل الآن؟

وكما لكي لا يترك لي فرصة، بدأ الأسوء بالحدوث.

تيار جذب غير عادي خلقته الدوامة الفراغية بالجدار، بدأ يسحب جسمي إلى الغيمة السوداء، إلى القرنين اللذان توهجا بنور ونار.

حاولت تثبيت نفسي على الأرض وقد بدأت أفقد توازني، قدميّ ترتفعان في طريقهما للإقلاع بي نحو الدوامة التي بدأت تأخذ أبعادا أكبر. القرنان الحمراوان وسطها يشتعلان بلهب أصفر مستفز، يناديانني إلى الجحيم.

ارتفع جسدي في اللحظة الموالية، وأنا أشعر بأن لا شيء يتطاير في الغرفة سواي. الدوّامة الشيطانية اختارتني أنا بالذات. وها قد اندفعت صوب الثغرة السوداء في الجدار بقوة لم أستطع حيالها شيئا، أمسكت ضلفتي الدولاب وأطلقت صرخة.

صرخت ملء حنجرتي، وقد تحرر لساني أخيرا، لن يسمعني أحد. لا بد أن المحامي الجبان فرّ الآن. قضي عليّ.

شعرت بقدمي تلمس القرنان المشتعلان، لأن اللهب انتشر في سروالي بسرعة غريبة، مع ألم بالحرق رهيب. صرخت، مزقّت حنجرتي بالصراخ أطلب نجدة أي كان. حتى لو كان مخلوقا من أعمق أعماق الجحيم.

كانت الدائرة الخماسية تتوهج وسط الغرفة كألف شمس، وقد بدأ نفق من النور يبهر عيني، فقررت الإستسلام له فاقدا الأمل في نجاة مستحيلة.

بيد أن الحظ ابتسم لي أخيرا، ولم تضع توسلاتي سدى.

كانت يد المحامي الذي هزم خوفه تجذبني بإصرار. لم يبد أن تأثير الدوامة شمله. وقد نجح في إخراجي من الدولاب، وتعاوننا على قفله من جديد، وأنا ألهث من فرط الإثارة، أحس بأن قلبي على وشك أن يعلن إضرابا مفتوحا.

كانت النيران قد سلخت رجلي، تاركة آلاما فوق الوصف. لكن الخوف والرعب فاقا الألم، وأنا أتحامل لأنهض والمحامي يطمئن علي، مذعورا مثلي وأكثر. قبل أن يساعدني لنغادر القاعة الرهيبة.

كان الدولاب خلفنا يرتج بقوة. نور أحمر باهر ينتشر من كل فرجاته، كشمس في طريقها لـ(سوبرنوفا)، تبادلت والمحامي نظرات رعب، فكر بالخروج فورا من هنا ولا ألومه.

ثم لمحت ذلك الشيء أسفل المكتب.

كانت براميل البنزين تنظر لي بهدوء مستفز، مخرجة لسانها كما لو تريد القول: (أنت – مغفل)

برقت الفكرة في ذهني فجأة : عمي أحضر هذه الصفائح لغرض ما. قام بتجربة فاشلة أثناء محاوراته مع قوى من خارج عالمنا. وأراد إصلاح ما اقترفت يداه. لكن القدر لم يمهله.

لكنني ربما أملك هذه الفرصة.

تبادلت نظرة مع المحامي الذي كان ينظر في تلك اللحظة للدولاب بذعر لا نهائي.

لا أذكر ماذا حدث بعدها بالتفصيل، فجأة وجدت نفسي داخل القاعة الكبيرة أتصبب عرقا والمحامي بجانبي يهدئ روعي ونحن نراقب النيران تلتهم القبو السري، ونسمع برعب هائل الصرخات الهائلة المنبعثة من أسفل.

صرخات يبدو أنها تنبعث من قلب الجحيم.

كان علي أن أفهم، لحظة رأيت الكتب في الخزانة، وصورة الشيطان تلك، أن عمي لم يغير يوما هوايته.

هو فقط لما انتهى من قرون الكائنات الحية، شرع يبحث عن قرون أخرى لكائن أكثر خطورة.

قرون شيطان.

باب الفيلا

- سينزل جدي حالا

قالت الفتاة اللطيفة ذات الأربعة عشر ربيعا وأردفت برقة :

- أرجو ألا أزعجك بحضوري

حاول (أحمد) أن يقول لها شيئا لطيفا، كأن وجودها لا يزعجه البتة، لكنه لم يفعل .. وجوده هو أصلا يزعجه هو ..

لم يكن يستسيغ فكرة زوجته بزيارة الجيران والتعرف بهم. لكنه انتهى إلى الاقتناع بالفكرة وقد بلغ منه الملل كل مبلغ. ورغم أن هذا يتعارض مع حالته الصحية التي تنشد الهدوء والابتعاد عن كل ضجيج ..

كان الطبيب قد أوصاه بأن يخلد للراحة التامة، لذلك اشترى تلك الفيلا الهادئة التي تطل على بحر الإسكندرية ..

خرج اليوم رغم الجو الذي ينذر بطقس ماطر. حمل مظلته السوداء وقصد فيلا السيد (فهمي)، يقولون إنه لواء سابق. وستكون معرفته مفيدة حتما ..

- هل تعرف جدي يا سيدي ؟؟ .. لم أرك من قبل هنا ؟

سألت الطفلة بخجل فأجاب (أحمد) وهو يرسم ابتسامة :

- لا مطلقا .. أنا جاركم الجديد في الفيلا المقابلة .. جئت فقط لأتعرف على جدك السيد (فهمي)

قالت الفتاة بشك طفولي :

- إذن أنت لا تعرف أي شيء عن جدي ؟

- فقط الإسم والعنوان .. وبأنه كان لواء في الجيش ..

- إذن .. أنت لا تعرف شيئا عن الحادثة ؟

- حادثة ؟؟

قال (أحمد) مندهشا.

أشارت الطفلة إلى باب الفيلا المفتوح عن آخره. الحديقة تبدو بالخارج، قطرات المطر بدأت تهطل وتبلل العشب الأخضر.

وقالت :

- ربما تتساءل لماذا نترك باب الفيلا مفتوحا رغم الجو البارد بالخارج ؟

كان (احمد) قد طرح السؤال في نفسه وهو يجلس في الصالة. بدا له الأمر غريبا فعلا

- الجو بارد بالفعل اليوم .. لكن .. ألهذا علاقة بالحادثة ؟

- من هذا الباب .. وفي نفس هذا اليوم .. قبل ثلاثة أشهر .. غادر أبي وعمي وأخي الصغير مع الكلب(ريكس) وركبوا سيارة عمي في طريقهم إلى العزبة .. ولم يرجعوا قط ..

بلغنا الشرطة التي قامت ببحث موسع قبل أن تعثر على السيارة محطمة بين الصخور في جرف يطل على البحر

وأخذ صوتها في التشنج وهي تبكي مردفة :

- الأفظع في الأمر أنهم لم يعثروا على الجثث

ومسحت دموعها عن عينين محمرتين مكملة :

- جدي لم يصدق أبدا أنهم ماتوا .. حتى بعد وفاة جدتي إثر الصدمة .. ظل واثقا بأنهم، مصحوبين بكلبه البوليسي (ريكس)، سيدخلون من هذا الباب .. لهذا يأمرنا بترك الباب مفتوحا حتى ساعة متأخرة من الليل .. جدي المسكين .. كان آخر من رآهم في ذلك اليوم المشئوم .. لقد حدثني مرارا عن تلك اللحظة .. أبي بمعطف المطر الأبيض .. عم (صبحي) ومظلته الحمراء المميزة .. وأخي الصغير يردد بطفولية أغنيته المفضلة التي يلهو بها مع جدي : جدو فين .. جدو فين .. جدو هنا .. هل تصدق ؟؟ .. حتى أنا في بعض اللحظات أشعر بأنهم سيعودون يوما ما

ارتجفت الطفلة وتوقفت فجأة عن الكلام ..

وشعر (احمد) بالارتياح وهو يلمح الجد (فهمي) ينزل درجات السلم وفي عينيه نظرة اعتذار على تأخره.

وقال بلطف :

- هل آنستك (حنان) يا سيدي ؟؟ .. معذرة على التأخير

قال أحمد وهو ينظر إلى (حنان):

- إنها .. كيف أقول ذلك ؟؟ .. طفلة مميزة ..

بنفس اللطف قال السيد (فهمي) :

- أرجو ألا يكون الباب المفتوح قد أزعجك .. أنا أنتظر ولدي وحفيدي الصغير .. أخ (حنان) .. سيأتون من العزبة .. و ..

شعر (أحمد) برجفة تجتاح جسده وتدغدغ عموده الفقري، والعجوز يتحدث عن العزبة، عن هواءها وأشجارها، وبمجهود غير عادي حاول أن يغير مجرى الحديث وهو متعاطف مع العجوز المسكين، الذي يبدو كما قالت الطفلة فعلا متأثرا بالحادثة. هو يعرف الألم الذي يسببه فقدان ابن، وهو فقده حيا للأسف، فابنه لا يسأل حتى عنه ووالدته. كاد يحدث (فهمي) عن ابنه لكن العجوز لا يعيره اهتماما حقيقيا وبصره معلق بالباب المفتوح.

أحس (أحمد) بالذنب لاختياره هذا اليوم، ذكرى الحادثة الأليمة، لحضوره.

وقال مستغلا لحظة توقف فيها العجوز عن التحدث عن العزبة :

- لقد نصحني الأطباء بالخلود إلى الراحة التامة، وتجنب العواطف القوية والمجهود العضلي العنيف.

كانت الكلمات تخرج بصعوبة من فمه وقد نسي من فرط التوتر لماذا هو أصلا هنا

- وقد وصفوا لي حمية غذائية و ..

- حمية غذائية ؟؟ قال العجوز (فهمي) دون اهتمام حقيقي، فقط ليبين أنه يتابع حديث (أحمد) رغم أن كيانه كله معلق عند الباب المفتوح.

حين أشرق وجهه فجأة :

- ها هم أخيرا .. تماما في موعدهم !!!!!

انتفض (احمد) في مكانه، هز رأسه بأسف. ونظر إلى الطفلة (حنان)، لقد كانت الطفلة على حق والعجوز مريضا بالفعل، كانت الطفلة تحدق في تلك اللحظة بدورها في الباب، عيناها متسعتان عن آخرهما رعبا، فاجتاحت (أحمد) قشعريرة باردة وهو يلتفت ببطء.

كانت هناك ثلاثة أجساد لرجلين وطفل، أحد الرجلين بمعطف مطر أبيض يمسك بكلب بوليسي، والأخر ينفض مظلته الحمراء عن قطرات المطر، الطفل يجري نحو السيد (فهمي) وهو يترنم : جدو

فين .. جدو فين .. جدو هنا

أمسك (أحمد) مظلته بقوة وقلبه يدق كالقنابل، وبسرعة جرى، لم يشعر بنفسه وهو يتخطى باب الفيلا، الحديقة، بوابة الحديقة، كان يتعثر أكثر من مرة ويعود للجري من جديد، أسقط فتى من على دراجته في الشارع، ونهض يجري من جديد دون أن يلتفت خلفه، وكأن الشياطين كلها تطارده.

- ها نحن يا أبي قد جئنا في الموعد تماما .. لكن من هذا الرجل الذي اخذ يجري عندما رآنا ؟

قال الرجل ذو المعطف الأبيض فأجاب السيد فهمي :

- رجل غريب فعلا وقليل التهذيب .. لم يقل شيئا سوى الحديث عن مشاكله الصحية .. وقد غادر هكذا دون كلمة اعتذار أو وداع .. وكأنه رأى أشباحا

قالت الطفلة (حنان) بهدوء :

- الكلب هو السبب .. لقد قال لي بينما كان ينتظرك يا جدي .. بأنه يخاف الكلاب جدا .. لأنه عندما كان صغيرا .. هاجمته كلاب ليلا داخل مقبرة .. واضطر إلى قضاء الليل داخل قبر مهجور .. بينما الكلاب تنبح بشراسة متوعدة بالشر .. شيء مخيف حقا .. أليس كذلك ؟

الجراح

كان المحامي قد انتهى من قراءة الوصية حين رأى علامات الدهشة على وجهي

قلت بصوت حمل ذات التعبير :

- لم أفهم شيئا .. ماذا يقصد العجوز بأنه علي تحمل تبعات الحصول على التركة .. أنا الوريث الوحيد له .. أليس كذلك ؟

قال المحامي مجيبا :

- ما من شك في ذلك .. لكنه لسبب ما .. يخيرك بين قبول التركة مع استعدادك لتحمل تبعات ذلك وأؤكد أن لا علمي لي عن أي تبعات يقصد .. أو النفاذ بجلدك بترك كل شيء.

- النفاذ بجلدي .. أي وصية ملعونة هذه ؟ قلت صارخا

- أنا أقرأ ما جاء في الوصية وحسب .. رد بهدوء

وتساءل :

- ربما كان هدفا لثأر. هل تعرف لوالدك أعداء؟

أعداء ؟؟ .. ومتى كان لديه الوقت ليكوّن أصدقاء.

لم يكن أبي بصحة عقلية جيدة في السنتين الأخيرتين ، لذلك أفهم لماذا جاءت وصيته خرقاء هكذا. كنت مقصرا في زيارته ، لكنها مشاغل العمل التي لا تنتهي. وأنا محتاج للمال الكثير بشدة بعد أن خسرت صفقات كبيرة ..

صافحت المحامي بعد أن وقعت الأوراق وغادرت المكتب ثم ركبت سيارتي وجهتي قصر والدي .. كان أبي جراحا مرموقا ومن أسرة ثرية. اعتزل الطب منذ سنين خمس. منذ تلك الحادثة المشهورة التي تحدثت عنها الجرائد وقتها. كان في رحلة سفر و استجمام عبر الباخرة (ايمبريال) مع زوجته الثانية ، حين غرقت الباخرة في الكاريبي ..

ثلاثة أشهر مضت دون أن نعثر على أحد من الناجين ، قبل أن تردنا أخبار بالعثور على والدي في قارب نجاة نصف محطم مع ناجيين آخرين من كارثة الباخرة ، وذلك على مقربة من أحد الجزر ..

كان الوحيد تقريبا بصحة جيدة أما الآخرين فكانا صربيين في حال يرثى لها وقد فقد كل منهما ذراعيه بعد صراع مرير مع أسماك القرش ..

عاد والدي لـ(مصر) وحين استرد عافيته اعتزل في قصره يبكي فقدانه زوجته ، و لا يقابل أحدا ولما كنت وليده الوحيد فقد كنت أزوره حينا وآخر حتى انقطعت زياراتي بسبب الأشغال الكثيرة في آسيا ، حيث خسرت كل ثروة والدتي تقريبا

و الآن وقد فقدت والدي أيضا أجدني أمام وصية غريبة تدعوني لترك كل شيء

وأنا لست مجنونا طبعا

كان القصر خاليا وقد سرح كل الخدم في أيامه الأخير. زرت القصر آخر مرة منذ سنة لذلك أحسست بشوق كبير لتفحص حجراته

لقد كبرت هنا. قبل أن تأخذني الدنيا بعيدا في متاهات أخرى. كنت قد تركت القصر بعد وفاة والدتي مباشرة منذ سنين عشر. لم يكن والدي سعيدا بذلك لكنني أصررت على قطع كل صلة بالمكان الذي يذكرني بها ..

وربما لهذا قطعت صلتي بوالدي أيضا شيئا فشيئا ..

حتى قرر أن تزوج من شابة بمثل سّني ..

حينها لم أعارض وكنت أدرك أن والدي تمنى لو عارضت. كان كمن فعل ذلك ليتقرب مني ، ليكسر حاجزا وضعته بيننا فقط لأن والدي كان من أجرى الجراحة لأمي ، الجراحة التي ما أنقذت حياتها ..

كنت أعلم علم اليقين بأن لا دخل لوالدي في وفاة والدتي لكنني كنت أتمنى لو يستطيع فعل شيء لإنقاذها. أليس هو الجراح صاحب المعجزات ؟

كنت قاسيا على والدي. لكن أشد قسوة على نفسي. أدرك هذا الآن ..

كانت غرفة المكتب كبيرة نوعا. هنا كان والدي يقضي أغلب أوقاته. يقرأ ويكتب ويشرب القهوة. تراه كتب مذكراته وتركها هنا ؟ ماذا قال عني ؟

المكتب الضخم من الخشب الأسود ، والخزانة الجميلة بطبعاتها الجلدية الفاخرة ، كان والدي ذا ثقافة موسوعية ويهوى القراءة كثيرا. جلست على الكرسي الوثير متحسسا جلده ناعم الملمس. ألبوم صور موضوع بعناية على سطح المكتب .

بلا إرادية وجدت يدي على الألبوم تحمله. تفتح غلافه البني السميك ..

كانت صفحاته من الورق المقوى الأسود الفاخر. صورة بكل صفحة. وكانت أولى صوره لوالدتي رحمها الله أدمعتني.

تصفحت الألبوم صورة صورة. لي صور عديدة هنا وأنا صغير، بعدها طرق أبوابا في ذاكرتي وأرغمني على الإبتسام وبعضها لم ينجح

مهلا، هناك شيء هنا ..

ورقة محشورة خلف صورة لي لفتت انتباهي، فأخرجتها بحرص

كانت مطوية بعناية. ورقة رقيقة تحمل بخط والدي رسالة ما

انتقلت عيناي بين سطور الورقة، كانت مكتوبة بعجالة وبخط كدت لا أفقه فيه شيئا .. لولا معرفتي الجيدة بكتابة والدي. لا ريب أنه كتبها في الوقت الذي كان يعاني فيه عقليا، بعد حادثة الغرق مباشرة

كان والدي حينها وحسب الطبيب النفسي الذي استشرناه مصابا بالبارانويا والأجورافوبيا (الخوف من الأماكن المفتوحة)، لذا حجز نفسه في القصر ولم يكن يخرج مطلقا ..

كانت رسالة غريبة فعلا وتكشف بوضوح تدهور عقلية من كتبها. فكلها خوف من انتقام أشخاص، وصفقة رهيبة، وتحذير لي شخصيا ..

لم أفهم شيئا فرميت الورقة على سطح المكتب وألقيت الألبوم فوقها

نظرة إلى ساعتي اليدوية، كان الوقت عصرا وأنا لم أنعم بقيلولتي المعتادة بعد. وكان كرسي المكتب وثيرا فلا يلومنّي أحد لأنني رحت في إغفاءة ..

• • •

كان كابوسا رهيبا ..

تخيلت فجأة أنني في قارب خشبي بعرض بحر هائج، أسماك القرش تقفز من كل الإتجاهات وإحداها تمسك ذراعي بين فكيها المنشارين الرهيبين، وتنتزعه انتزاعا. أصرخ بكل الألم الممكن، والدماء تسيل بغزارة من موضع القطع. جزء من عظم ذراعي حاد يبرز أمام عيني الملتاعتين.

واستيقظت غارقا في عرقي، وقلبي ينبض كمفاعل ذري، خوفا ..

حال هدأت وزال رعبي، أحسست بذلك الألم الفظيع ..

كان الظلام قد غمر المكتب ولم أكن أرى شيئا، لكن ذراعي اليسرى كانت تؤلمني بشدة.

حين حاولت تحريكها، اكتشفت برعب أنها لم تعد موجودة ..

بتوتر حاولت اختراق الظلمة بعينيّ وأنا أطلق صرخات هيستيرية، دموع الرعب فاقت دموع الألم ..

وفجأة، أضاء مصباح المكتب ..

لم تكن يدي التي ضغطت زره، وإنما يد شخص بعوينات رفيعة برز وجهه أمامي كالشبح حين أنار المصباح المكان ..

كان جالسا على الكرسي أمامي، كهل بشارب رمادي وشعر بنفس اللون ..

ولم يكن لوحده ..

كان هناك عجوز في كرسي متحرك، ينظر لي بعينين قاسيتين. وبالكاد تبينت ملامح وجهه، فقط عيناه القاسيتان تشعّان وسط الوجه الكئيب ..

- من .. من أنتما ؟ .. سألت والرعب يكاد يجمّد قلبي .. ماذا حصل لي ؟ .. ماذا فعلتما ؟

أجاب الرجل ذو العوينات والشارب الرمادي :

- يمكن أن تطلق علي اسم (الجراح) .. قاتل محترف

احتبست الدهشة في حلقي، وألم فظيع ينتشر من ذراعي المبتورة نحو أجزاء جسدي بينما الرجل يردف :

- زبوني الذي تراه أمامك هو (ستانيسلاس سيجرييف) .. قبل أن أكمل عملي يريدني أن أحكي لك القصة .. فقط لكي لا تكن له ضغينة ..

كان الرعب قد شل تفكيري تماما، والألم ضاعف إحساسي بالشلل أضعافا والرجل يقول :

- ما يحدث لك هو تنفيد لعقد .. لصفقة .. بين والدك .. وزبوني

من أين لوالدي أن يعرف هذا الـ(ستانيسلاس) ؟ فكرت وأنا أرى عيني الرجل القاسيتين تخترقانني كسهام حادة.

وأكمل (الجراح) الحديث الذي أعده سلفا مع الرجل المقعد :

- كان أحد رجلين تمت نجدتهما مع والدك في حادث غرق السفينة (ايمبريال) .. هما صربيان .. رجلا مافيا لهما مكانتهما ووزنهما في (صربيا) .. طبعا عثر عليهما وكل منهما فقد ذراعيه وقد اتفقوا على قول أن أسماك القرش هاجمتهم .. فعلا هاجمتهم أسماك القرش .. لكنها لم تنتزع أذرعهما .. لو تعمق المحققون في الأمر لرأوا بأن البتر كان من الدقة بحيث لا يقوم به سوى جراح خبير ..

الحقيقة أن الثلاثة اتفقوا .. بعد أن بلغ منهم الجوع مبلغا مميتا .. أن يقطع والدك أجزاء من جسديهما لأكلها .. كان والدك يحمل حقيبة معدات طبية أنقذها من السفينة وكان الجراح الوحيد بينهم .. لذلك اتفقوا معه على أن يقطع أذرعهما حتى يتمكنا من العيش .. على أن يفعل والدك المثل في حالة نجوا وعاد كل منهم إلى بلده سالما ..

لقد تركوه سنوات وسنوات منتظرين أن يفي بعهده .. لكنه أبى .. هددوه .. لكنه رفض .. لذلك أرسلوني لتنفيذ العقد .. لحسن حظه توفي والدك قبلا .. لكن زبوني مصر على تنفيذ العقد وقد انتظر كثيرا .. وقد رآى صديقه الصربي الآخر يموت بحسرة دون أن يرى ذراع والدك .. وبما انك الوريث الوحيد لوالدك فـ ..

أنا كما قلت قاتل محترف .. ألقب بالـ(جراح) .. لأنني .. كوالدك المرحوم .. كنت جراحا ..

لقد وجدناك نائما حين تسللنا إلى الفيلا .. لم يرد زبوني إيقاظك وأنا أبتر ذراعك اليسرى .. لحسن حظك ..

اسمح لي الآن بإكمال ما بدأته .. لا ترهق نفسك بالحركة لقد حقنتك بمادة مخدرة تشل حركاتك .. لكن لسوء حظك هذه المرة .. فالرجل يريد أن يراك تتألم وانا أبتر ذراعك اليمنى .. ستشعر بألم فظيع فلأحذرك ..

نهض (الجراح) و أخذ يناول مجموعة من الأدوات الجراحية في حقيبة مفتوحة على الطاولة أمامه، بعضها ما زال غارقا بالدم، قطع من القطن والضمادات غارقة في دمي أيضا.

إختار مشرطا غير عادي الحجم، فقط لمنظره تمنيت لو فقدت الوعي، لقد كان هذا الرجل جراحا وقد تحول لقاتل محترف.

سامحني يا أبي.

حتى قبل أن يمسك الرجل ذراعي المخدّرة. أطلقت صرخة. لاحظت انه يضع قطنا في أذنه، الفيلا

مهجورة ولا احد سيسمع صرخاتي، لقد أعدا لكل شيء، فلأصرخ كما أشاء !!
والمشرط يمزق ذراعي أخذت أصرخ، أصرخ !! فالألم كان فظيعا. توسلت للرجل المقعد وعيناه تراقبانني بوحشية. لا أعرف ماذا قلت لهما ليتركانني ؟؟.. وعدتهما بمنحهما كل المال، لكن شيئا لم يتغير.
حين غادرا صباحا بذراعيّ، كنت غارقا في دمي ودموعي على سطح المكتب.
أنزف بغزارة وقد بدأ الوعي يتسرب مني.
اعرف أنني لن أنجو كما نجا والدي من الغرق.
عرفت ذلك منذ رأيت آلات ذلك الـ(جرّاح) !!!

25 قرشاً

" ما الذي يفعله بالضبط ؟ "

يتردد السؤال في ذهنها وهي تراقبه بخوف.

هادئا كان يداعب (تامر) !

يخرج قطعة نقدية من جيبه ،

25 قرشا.

قطعة نقدية ، على شكل حلقة من المعدن الكئيب.

حين رأتها شعرت بقشعريرة باردة تعبر جسدها كتيار قوي

يقذف بالقطعة في الهواء ليلتقطها على ظهر يده

ويقول لإبنهما (تامر) :

- تستطيع أن تفعلها ؟

تشد على أسنانها بغيظ وألم.

هو يفعل هذا عن قصد.

يعذبها به.

لم يتبادلا الكلام و لا مرة ، إنه حتى لم ينظر إليها. كما لو كان يتجاهل وجودها من الأساس.

على طاولة الغذاء كان ينتظر ، طفلهما (تامر) بين ركبتيه.

تضع الأطباق على المائدة وهي لا تكف تراقبه بنفس الذعر.

يضحك بفرح غريب مع (تامر) ، يداعبه كما لم يفعل من قبل.

ويخرج القطعة النقدية من جديد.

على المائدة الخشبية المصقولة ، يدير القطعة بسبابته وإبهامه.

وتدور حول نفسها القطعة النقدية.

تدور..

تدور..

تزداد سرعتها مع كل دورة..

وتزداد..

وتزداد..

وهي تقوم بحركة لولبية فوق سطح المائدة.

قبل أن تتهاوى فجأة !!

للصوت المعدني في أذنيها وقع مختلف.

رنان..

مؤلم..

يتناولان الغذاء دون أن يتبادلا كلمة.

ينقل الطعام إلى طبق (تامر) بنفسه، ويحثه على الأكل، مستمرا في تجاهلها.

كانت تحترق من الداخل ببطء،

وألم.

ترى (تامر) وكأنه يتجاهلها بدوره، ألم يجد ضالته في صحبة أبيه؟ وهو الذي كان يعاني من فقدانه صحبته كثيرا.

الآن هو معه طوال الوقت.

لم تعرف كيف لم يذهب للشركة منذ خمسة أيام متتالية، لكنها استنتجت أنه طلب إجازة.

ربما لأول مرة في حياته يطلب إجازة؟

تتساءل: كيف سيمر اليوم أيضا وهما على هذه الحال؟

منذ خمسة أيام وهو على هذا الحال معها، لا يغادر الشقة إلا دقائق لشراء السجائر في الكشك المقابل للعمارة التي يقطنون بها.

يراقبها.

يلهو بالقطعة النقدية، ومع (تامر)

يعذبها.

ينتقم .. منها

فكرت أن ترحل وتنفذ بجلدها، لكن لا مكان تعرفه يؤويها. لن تقبل العائلة التقليدية المحافظة بأن

تغادر ابنتهم بيت زوجها، وهي أيضا لا تريد الابتعاد عن ابنها.

كانت ترتجف لفكرة أنهم على موعد الليلة مع عائلتها، موعد الزيارة الشهرية لهم، إذ يحضرون لرؤيتها من مدينة مجاورة.

وهذا يعني أن عليها أن تعد طعام العشاء للعائلة !

أبوها .. أمها .. أخوها .. زوجة أخيها..

لم ترد أن تطلب منه نقودا لشراء بعض الأشياء، لكنه فهم ما تفكر فيه، دون حتى أن يرى نظرة عينيها القلقة.

على طاولة المطبخ رأت المصروف الذي تركه هناك، وهي تغسل الأطباق.

المبلغ كله بقطع نقدية من نفس القيمة والنوع.

25 قرشا.

تراجعت بذعر لمرأى القطع النقدية.

لن تحتمل هذا بعد !

أرادت أن تبكي..

أن تصرخ ..

لكن الدموع أبت أن تفر من عينيها، وكتمت صراخها بقوة القهر.

نادت البواب ليشتري الحاجيات، وعادت لتقوم بتنظيف الصالون، بينما هو كان يلهو مع (تامر) على جهاز اللعب في غرفته.

كان ضحكات الفتى تصل أذنيها، فتتعذب، تحترق حية كأنها في جحيم حقيقي.

ليلا، كانت مائدة العشاء معدة على أحسن ما يكون الإعداد. وكان الجميع سعيدا، نشيطا. باستثنائها هي.

حتى هو، يتحدث مع أبيها بحميمية غريبة، وكأنه يسخر منها.

طبعا هو يسخر منها !

لاحظ أخوها أنها ذابلة، شعر بمعاناتها، لكنه لم يعرف كيف يتصرف.

" لن يستطيع فعل شيء " ، قالت لنفسها.

في وقت ما من العشاء، أخرج زوجها القطعة النقدية.

هنا جمدت مكانها من الرعب.

تحول قلبها إلى مضخة قوية تضخ الماء المثلج في عروقها.

تعلق كيانها كله بشفتيه

سأل ببراءة موجها كلامه لأبيها :

- هل تعرف يا عماه لماذا تبدو قطعة النقود وكأنها تدور بطريقة متسارعة على الطاولة ؟

وأعقب قوله بأن أدار القطعة المعدنية بسباته وإبهامه على السطح المصقول للمائدة

قال الأب وقد اندهش للسؤال :

- لا ... ربما لأنه خداع بصري؟

هز هو رأسه نفيا وقال بابتسامة :

- أخطأت يا عماه .. ليس بخداع بصري

كانت القطعة تدور حول نفسها متسارعة وراسمة مسارا لولبيا على الطاولة قبل أن تسقط فجأة بين الأطباق

وقال وقد جذب انتباه الجميع ، واستغرابها الفزع :

- من العجيب أن يقف العلم حائرا أمام ألغاز فيزيائية بسيطة كهذه .. نفس العلم الذي اخترع القنبلة الذرية .. وأوصلنا إلى القمر ..

قال أخوها بفضول :

- ارني القطعة ..

وعاد يدير القطعة على سطح الطاولة والجميع يتابعها باهتمام غريب ، كانت القطعة تدور وتدور ..

وتدور ..

ثم تسقط فجأة دون إنذار.

وبينما ترتسم على ملامحهم علامات الإستغراب ، كمن يكتشفون شيئا جديدا.

كانت هي تحترق.

لم تعرف ما الذي يفعله بها بالضبط لكنه ينجح.

وقال وقد سلب انتباه عائلتها كلهب شمعة يجذب الحشرات الليلية :

- في أبريل سنة 2000 قام الفيزيائي الإنجليزي (كيث موفات) بنشر أول دراسة نظرية حول دوران قطعة نقدية معدنية على سطح أفقي .. نظريا لا تتوقف القطعة العدنية عن الدوران لأن سرعتها ستبقى ثابتة

ولكن .. في الواقع فالقطعة تدور بسرعة أكبر شيئا فشيئا أثناء حركتها على الطاولة قبل أن تتوقف بغتة .. استنتج(كيث) بأن هناك فقدان للطاقة .. وبوساطة حسابات ميكانيكية بين أن تلاشي طبقة الهواء المحصورة بين القطعة والطاولة كاف لتفسير الظاهرة

ستة أشهر بعد ذلك .. فنّدت فرضية (كيث) .. عندما قام الباحث الأمريكي (جير فان دير انج) بإعادة التجربة في الفراغ ولخص إلى أن وجود الهواء أو انعدامه لا يؤثر على الحركة الدورانية.

كان الجميع يتابع درسه كمن يستمع لحكاية مسلية، لم لا؟ بعض الفيزياء لن تضر أحدا !

أما هي فكانت تشعر بالقهر، وتكتم في صدرها.

هذا كان واضحا في حركتها العصبية والهيستيرية، وهي تضرب بالشوكة والسكين طبقها بعنف.

لكن أحدا من عائلتها لم ينتبه لها، وانغمسوا في حديثه العلمي الشيق(*)

- منذ ذلك الوقت نشأ ميدان جديد في علم الديناميكا .. وأخذ الجميع يحاول وضع خاتمة للقصة. دون أن يصل أحدهم إلى الحل القاطع والنهائي الذي وكما اعترف (كيرك ماكدونالد): لابد أن يكون حلا معقدا جدا.

بعد نهاية كلامه، كان الساعة الحادية عشرة.

وكانوا جالسين في الصالون بعد أن شربوا الشاي.

(*) بين الفيزيائيان الأمريكيان (ألكسندر) و(كيرك ماكدونالد) في نهاية 2000 ، وبافتراض أن القطعة تدور على السطح الأفقي ولا تنزلق ، أن الاحتكاكات الداخلية تفسر نظريا الملاحظات التجريبية
وفي فبراير 2001 قام البولونيان (ألكسندر ستانيسلافسكي) و(كاتارزينا فيرون) بتحليل الطيف الصوتي الناتج عن دوران القطعة لكنهما لم يتوصلا لشيء جديد
وأخيرا في فبراير 2002 افترض الفيزيائيان الأمريكيان (باتريك كيسلر) و(أولوفر أوريلي) ، بحسابات معقدة ، أن تشوهات القطعة النقدية والسطح .. عوامل لا بد أن تؤخذ أيضا بعين الإعتبار.

لذلك تظاهرت بالنعاس

هنا .. قام الأب معلنا على رغبتهم في المغادرة

ورافقهم هو حتى باب العمارة

تبادل الأب كلمات مع الزوج وهي تراقبهم من نافذة الشقة التي ترتفع إحدى عشر طابقا

تراقبهم بتوتر

وخوف

حين عاد هو، اطمأن على أن (تامر) ينام بعمق، وقصد غرفة الضيوف ليطفئ النور من فوره.

بينما هي تنظف الأطباق في المطبخ وتفكر في ما يجب أن تفعله.

كانت تبكي بصمت،

بحرقة.

وبدأت ترى الوجود كله من حولها كأنما يعاقبها.

حين نظفت المطبخ جيدا،

مرت أمام غرفة ابنها.

فتحت الباب، ألقت نظرة على (تامر) النائم كملاك، ذرفت المزيد من الدموع بصمت،

وخرجت .. من الشقة.

كان الجو بالخارج باردا، والنيل كئيبا كأنما يناديها لتنفذ ما عزمت عليه.

وكانت تقف كالمحطمة على طرف الكورنيش، والريح الباردة خلفها تدفعها بخفة.

هي أيضا تقدم لها دعما إضافيا.

على الصفحة السوداء للنيل، والأنوار المتلألئة على سطحه كمئات القطع النقدية، مئات الحلقات المعدنية التي تبدو كأصفار لا نهائية.

وقبل أن ترمي نفسها، رأت كل شيء.

رأت نفسها مع عشيقها في غرفة النوم وزوجها يدخل فجأة عليهما.

لم يفعل شيئا.

لم يقتلهما، أو يتصل بالشرطة.

بقي ثابتا يرمقها بغضب.

هي.

هي فحسب.

أمر العشيق بأن يغادر، لكنه استوقفه قائلا :

- انتظر .. لقد قضيت وطرك منها .. ادفع لها

اندهش العشيق ونظر للزوج بخوف قبل أن تمتد يده لحافظة النقود بتوتر ويخرج ورقة مالية، لكن الزوج فاجأه :

- هذه مجرد مومس رخيصة .. ماذا تفعل ..؟؟ .. 25 قرشا وحسب

25 قرشا !!

أعطى العشيق القطعة النقدية للزوج، وغادر غير مصدق.

25 قرشا ..

كل ما تساويه ..

25 قرشا ..

بوجلود

ضربت (ميشيل) على المقود بانزعاج وهي تقود سيارتها الصغيرة وسط شوارع (الدشيرة) المدينة القديمة بـ(أكادير)، والتفت لزوجها (فريديريك) قائلة :

- لقد قلت لك لا تناديني (ميشيت) .. وإلا عدت أناديك (فريدوي)

قال ضاحكا وكأنما يسره مضايقتها :

- حسن .. حسن .. لا تنزعجي .. ألا يحق لي مداعبتك حبيبتي ؟

مطت شفتيها وقالت وهي تعود بعينيها للطريق تحاول إيجاد ثغرة وسط الزحام :

- ولكن ليس المداعبة السخيفة ..

وأردفت بسخط وهي تضغط على بوق السيارة :

- وهؤلاء الملاعين الجهلة ؟؟ .. متى سيتعلمون النظام ؟؟ .. لقد أقفلوا الطريق.

نظر لها (فريديريك) بدهشة. زوجته (ميشيل) عصبية نعم، لكن ما يزعجه فيها تعصبها المفرط.

قال مبتسما ابتسامة خفيفة :

- رويدك يا عزيزتي .. أنت تعلمين أن اليوم عندهم عيد.

قالت ساخرة :

- عيد ماذا قال لنا ذاك المرشد اللص ؟؟ .. آه نعم .. عيد "التضحية" .. هؤلاء الوحوش

قال (فريديريك) بانزعاج :

- توقفي عن قول ذلك .. تبدين سخيفة ..

كانا قد غادرا الفندق الذي يقيمان به على خليج (أغادير) في نزهة صباحية لزيارة المدينة القديمة. سائحان شابان يزوران المغرب للمرة الأولى. استأجرا السيارة الـ(رونو) الصغيرة، وانطلقا دون مرشد يفرض عليهما خط سيرهما يبتزهما عند كل محل بازار.

فتح الطريق في تلك اللحظة فانطلقت (ميشيل) وهي لا تكف عن السخط والاستهزاء على نحو أزعج (فريديريك) بحق وتساءل هل لأصول زوجته اليهودية علاقة بهذا ؟

وتذكر استخفاف زوجته بعدم اصطحاب دليل سياحي ذلك اليوم لأنه طلب مبلغا كبيرا متعللا بعدم تفرغه لظروف العيد. اعتبرته لصا وقررت أن يقوما بالجولة وحدهما.

على الأقل كان سيقودهما عبر طرق مختصرة بالمدينة القديمة، وسيعرفهما اكثر على مظاهر العيد ومعانيه لدى السكان البسطاء هنا. كان يحسدهم على السعادة المتفجرة في عيونهم.

كانت (ميشيل) تسرع وهي تقول بانفعال :

- إنهم يذبحون الخراف كالهمج ويحتفلون بذلك .. البدائيون

شخص ببصره في منظر الأطفال يتسابقون في الشوارع بملابس العيد. السعادة تشع من ملامحهم وأعينهم، وقال بشبه شرود :

- تقولين ذلك وكأنك نباتية ؟

ردت بسرعة دون أن تحول عينيها عن الطريق أو تنقص من سرعة السيارة :

- أنا آكل اللحم صحيح .. ولكنني لا أتمتع بذبح الحيوان وسلخه وشوي الرؤوس .. هل تتخيل هذا ؟؟ .. يشوون الرؤوس .. ويأكلون الأحشاء كذلك ... يا للقرف

قال بأسف وهو يعود ليتفحص وجهها وملامحها التي بدت له للحظة بغيضة :

- أنت ظالمة يا عزيزتي

ردت بقسوة سخرية :

- وأنت حمل وديع

لفت انتباهه المستغرب الأطفال الذين يجرون خارجين من أزقة ضيقة شعبية، والرعب باد على وجوه بعضهم في أشد صوره. دموع غزيرة يطلقها أطفال آخرون مصحوبة ببكاء يمزق القلوب الرحيمة.

دق قلبه بقوة وهو يشعر بأن أمرا جللا على وشك أن يحصل.

وقد كان.

خرج في تلك اللحظة عبر نفس الزقاق الذي هرول الأطفال منه، وحش بشع، اندفع نحو السيارة كالقذيفة.

كان يجري على قدمين، أول ما طرق ذهن (فريديريك) والزمن يتوقف بالنسبة له كمن تعرض

لصدمة، هو أنه أمام مخلوق خرافي كالمي -جي أو البيج فوت.

أو مخلوق أكثر بشاعة.

هذا لأن الوحش الذي يراه كان بطوله تقريبا مع رأس شيطاني لخروف أقرن، وجسمه مغطى بصوف متسخ تصله رائحته النتنة وهو في السيارة.

آآآآآآآآآآآآآآآه

ندت الصرخة من حلق (ميشيل)، مخرجة زوجها من حالة الصدمة، فانتفض وقد وقف شعر بدنه كالإبر .

لم يملك حتى الوقت ليلتفت ناحيتها، شعر بالسيارة تهتز نحو اليسار وزوجته تدير المقود في حركة بالغة الخطورة مع السرعة التي تنطلق بها.

في جزء من الثانية تنقلب السيارة بعنف وجسده يندفع نحو الزجاج الأمامي.

أحس بالموجودات حوله تتذبذب، حاول طرد الغشاوة الثقيلة عن عينيه، سائل دافئ يهبط من جبهته ويسيل على وجهه، أحس بمذاق الصدأ في فمه وألم ينتشر في كل جسمه.

آخر ما التقطته عيناه هو مجموعة من الوحوش تخرج من السيارة جسد زوجته، مهشم الوجه، مغطى بالدماء. صرخ بكل ما تبقى من قوة بحلقه، قبل أن يبسط الظلام سيطرته على وعيه.

• • •

استيقظ (فريديريك) ببطء. نظر حوله ليتأكد فعلا بأنه نائم على سرير مستشفى نظيف. حاول تحريك رأسه، وأحس بأنها تزن أطنانا. ماذا حصل؟ تساءل

أزوجته بخير؟

حاول النهوض من السرير، لكنه انتبه فجأة للرائحة الشنيعة، تقلص انفه وهو يتذكر برعب أين شم مثلها؟ قبل الحادثة بقليل.

رائحة الصوف.

برعب اكتشف أن وحشا يخرج من أسفل السرير الذي ينام فوقه. رأس خروف بقرنين شيطانيين وجسم مغطى بصوف أسود بني كريه الرائحة.

تجمد في مكانه غير مصدق أنه يعيش كابوسا، انفتح باب الغرفة بعد صرخاته المتوالية الهيستيرية، فقط ليدخل وحشان آخران يتقدمان منه بسرعة وهما يرمقانه بوحشية.

حاول القفز من السرير وهو لا يكف عن الصراخ الهيستيري، وقد حاصرته الوحوش، لكنه تعثر وسقط أرضا. دموع غزيرة تنهمر من عينيه، يحس أنه انتهى.

• • •

تساءل د.(جون) وهو يغادر الحجرة رفقة البروفيسور (باتريك) في مصحة نفسية بـ(تولوز) الفرنسية :

- ما حكاية هذا المريض؟

- لقد جاءنا منذ ستة أشهر بصدمة عصبية، كان في المغرب رفقة زوجته، وتعرضا لحادثة بالسيارة. فقدت فيها زوجته حياتها.

- والوحوش التي يراها في هلاوسه المستمرة هاته ؟

- يقول ملفّه أن أشخاصا متنكرين أفزعوا زوجته عن غير قصد. كانوا يحتفلون بأحد الأعياد البدائية بالمغرب. يلبسون جلود الخراف، ويطاردون الناس بالشوارع. شيء كالكرنفال يسمونه (بوجلود) (*).

هزّ الطبيب الشاب رأسه، وكاد يقول شيئا قبل أن يسمع صوت د.(عمر) الطبيب الأسمر في دفعته المتخرجة حديثا، يقول من خلفهما :

- أنت ظالم في قولك يا بروفيسور، تتهمنا بالبدائية والتوحش، بينما ترون احتفالات الـ(هالويين) مثلا، وهي لا تختلف كثيرا عن كرنفالات (بوجلود)، شيئا عاديا.

التفت إليه (باتريك)، وتوقف حتى التحق بهما الطبيب المغربي الشاب، ثم انخرطوا في حديث طويل.

(*) (بوجلود)، أو(بيلماون بالأمازيغية)، أو (سبع بولبطاين)، طقس أمازيغي قديم مميز، ربما ذو أصول أفريقية، يتصادف الإحتفال به شعيرة عيد الأضحى، حيث يلبس شاب فرو الخروف حتى يصبح بملامح مخيفة جدا، يلطخ وجهه باللون الأسود أو يرتدي قناعا بقرني كبش، يزور البيوت الواحد تلو الآخر من أجل بعض النقود ثمنا للفرجة فهو يطلق صرخات عالية ويلوح حزام جلدي أو برجل الخروف، الضرب الغير المبرح بهما كما يقولون : فأل حسن يعطي الأسر الأمان والإستقرار والرزق.

جليسة أطفال

تعمل (كيت شيرمان) لدى عائلة السيد والسيدة (فهمي) جليسة أطفال منذ ثلاث سنوات، لذلك يمكن القول أن (تامر) إبن الزوجين (فهمي) يعتبر (كيت) أختا كبرى له.

كانت الساعة السابعة في إحدى مساءات شهر فبراير الباردة في (نيويورك)، وقد غادر الزوجان منذ السابعة. تركا طفلهما في رعاية (كيت) بعد أن أعطياها كالعادة لائحة طويلة من التعليمات، فرغم أن السيد (فهمي) سخي جدا، إلا أن زوجته صارمة حازمة. على نحو يذكر (كيت) بأستاذة التاريخ، السيدة (بيرينز) المتدينة، التي تمقت كل بنات الفصل، وتعتبر كل واحدة منهن مشروع خطيئة.

لم تأبه (كيت) كثيرا لتعليمات الأم التي لم تفتأ تمليها على مسامعها كل مرة - على نحو يجعلها تحس بنوع من العقاب - وهي تسمع نفس النصائح والأوامر واللاءات. ربما لأنها تعودت على أن تعقد إتفاقا سريّا مع (تامر).

لكن (تامر) هذه المرة مريض، أوصت السيدة (فهمي) بترك الفتى ينام بهدوء لأنه محموم. وقد تفهمت (كيت) الأمر خاصة وقد أسر الزوجان إليها بأنهما ذاهبان إلى صديق للعائلة تمكن من العثور لهما على دمية نادرة للبطل الخارق الذي يشاهد (تامر) مسلسله، تلك الدمى التي تصدر في مناسبات حصرية وبعدد محدود. (تامر) لم يتمنّ منذ مدة سوى الحصول على الدمية، فكيف لا يهديانها له بمناسبة إتمامه السنة السابعة غدا؟

لكم تحسد (كيت) الفتى على والديه؟ غدا عيد ميلاد الشقي إذن؟ يجب عليها أن تفكر بدورها في هديّة مناسبة.

صعدت، فور مغادرة السيد والسيدة (فهمي)، إلى فوق على أطراف أناملها تلقي نظرة على الفتى النائم. قبل أن تقفل الباب بحذر وتهبط درجات السلم نحو الصالة. شغلت جهاز التلفاز واختارت القناة المفضلة لديها منتبهة إلى خفض الصوت ما أمكن.

لكن الملل سرعان ما تسلل إلى نفسها، لم تكد تمر ساعة حتى شرعت تتململ في مكانها، كانت قد

تعوّدت على قضاء الوقت في ألعاب مسلية مع (تامر)، رغم أن الفتى ليس من سنّها ولو علمت صديقاتها لسخرن منها شامتات. أطفأت جهاز التلفاز، وبحثت في رف مكتبة عن كتاب جديد تقرأه. لكنها لم تعثر سوى على روايات سبق وتصفحتها، وأخرى باللغة العربية لم تفقه فيها حرفا. فكّرت بزيارة البيت غرفة غرفة، ثم عدلت عن ذلك فهي تحفظ البيت عن ظهر قلب. أكثر من خمسين ليلة في هذا المكان وتستطيع رسم خريطة تفصيلية لو شاءت.

كان المبرّد كما تعودت مليئا بالأكل والمشروبات، لكنها لم تشعر برغبة حقيقية، واكتفت بتناول مثلجات. وهي تعود إلى الصالة، وتنظر بشرود إلى الجو بالخارج، عبر نافذة المنزل التي يتسلل منها ضوء القمر يخبرها بأن تستعد فالليلة ستكون طويلة.

تنهدّت وهي تحاول التفكير في شيء يسلّيها، واهتدت إلى تخيل زملائها بالفصل، لاعبي فريق الفوتبول الأشداء، عراة كما ولدتهم أمهاتهم. ويبدو أنها تاهت في تخيلاتها الشبقيّة، لأنها وثبت وجلة عندما رن جرس الهاتف.

تجمدت لحظة في مكانها، قبل أن تنتابها نوبة ضحك، لكنها توقفت عن القهقهة والرنين يتكرر غير مبال. فمدت يدها وأخرسته قائلة :

- ألو ..

ظنت بادئ الأمر أنها السيدة (فهمي) تتصل لتطمئن كعادتها، لكنها أمام الصمت المطبق في الطرف الآخر اكتشفت غير ذلك.

كررت :

- ألو ..

لكنها لم تسمع سوى صدى صوتها.

ما هذا السخف ؟ قالت لنفسها قبل أن تكرر لثالث مرة :

- ألو .. من يتصل؟ .. أجب أيها الوقح

وانقطع الخط.

أبعدت السماعة عن أذنها فجأة بحركة لا إرادية، وتجمدت عيناها لحظة. قبل أن ترتدي قناع الغضب. أحدهم أقفل الخط في وجهها، أول مرة تشعر بذلك.

من يكون إذن ؟ تساءلت بعد لحظات وهي تحضر علبة مثلجات ثانية تطفئ بها غضبها، لو كان

متصلا بالخطأ لاعتذر على الأقل.

حاولت تجاهل الأمر وعادت تشغل جهاز التلفاز واختارت قناة كوميدية، لكن المواقف التافهة لم تخطف منها شبح ابتسامة واحدة.

ثم رن الهاتف من جديد.

- ألو ..

كان هناك صوت هذه المرة، شيء كالحشرجة غير الواضحة، وأنين مريب أجفل (كيت) بحق، حتى أنها هي من قطعت الخط هذه المرة.

أيكون صديقها (ماك) الذي يحب مشاكستها ؟ لكنها لم تعطه رقم البيت.

توقف تفكيرها بعد لحظات في منطقة مظلمة. إنها في الولايات المتحدة الإمريكية، وفي (نيويورك)، موطن مصاصي الدماء والمستذئبين والقتلة المتسلسلين وأكلة لحوم البشر.

هناك "أساطير حضرية " كثيرة صيغت حول جليسات الأطفال، استغلتها السينما في هوليوود كما يجب. تعلم هذا وله ترتجف.

تذكر أنها شاهدت الفيلم رفقة (ماك)، في أمسية من الأمسيات. لم تتبع القصة تماما لأنها كانت منشغلة بأمور أخرى مع فتاها في الصفوف الخلفية !!

ماذا عليها فعله الآن ؟ اتصلت بـ(ماك) لتتأكد من أنه ليس صاحب المقلب، لكن هاتفه لم يكن يردّ. عاودت الكرة دون جدوى.

كانت في طريقها لتركيب الرقم ثالث المرات حين رن الهاتف مرة أخرى فانتفضت برعب، وردت ببطء:

- ألو .. (ماك) ؟؟

- سأقتلك إن لم تغادري البيت بسرعة، الآآآآن

قال الصوت الخشن آمرا، فرمت السماعة من يدها كما لو كانت جمرا ملتهبا، وأطلقت صرخة، لم تتوقف حتى سمعت الأزيز المتصل الذي يشير لإنقطاع الخط.

بحق الرب من يكون صاحب الصوت؟ كان صوتا فظيعا جلجل في أذنيها وبث فيها رعبا لم تشعر به في حياتها.

هو قاتل مريض إذن، وهي في ورطة.

أسرعت للهاتف تلتقط السماعة الملقاة أرضا وتركب رقم النجدة، لن تخرج من البيت حتى تحضر الشرطة. لن تفعل ولو كانت مجرد لعبة يسخر بها أحدهم من جبنها.

هدّأت الشرطية بالطرف الآخر من روعها. واستمعت لقصتها بصبر وهدوء لم تنجح (كيت) في فهمه، قبل أن ترد :

- أنت متأكدة من أنك لم تعط رقم البيت لصديق لك، أو صديقة ما تحاول أن تتظرف معك؟

- لا ..أؤكد لك .. أنا في خطر أرجوك .. إنه يهددني بالقتل إن لم أخرج حالا من البيت

- حسن اهدئي .. لن تخرجي من البيت .. اتفقنا ؟ .. هل اتصلت بمشغليك ؟

تذكرت (كيت) أن تلك النقطة فاتتها فقالت بتردد :

- لا .. في الحقيقة كنت خائفة و لم أفكر سوى في الإتصال بالشرطة

- حسن فعلت .. اسمعي يا (كيت) .. لو اتصل ذلك الشخص مرة ثانية .. حاولي تعطيله في الكلام قدر الإمكان حتى نتعقب الإتصال .. فهمت ؟

- نعم .. قالت (كيت) وقد هدأ روعها قليلا

- اعطني رقم هاتف مشغلك، ولا تقلقي .. فقط نفّذي ما اتفقنا عليه

أعطتها الرقم وعادت تجلس بعد الإتصال وقد بدأ التوتر يجعل جسدها يرتجف، كانت أعصابها مشدودة كالزنبرك. فكرت في (تامر) الذي ينام فوق غير واع بما يحصل، كم تحسده؟

فجأة انتابها شعور بالخوف على (تامر)، وتذكرت أنها من شدة رعبها مما يحصل، لم تصعد لتطمئن عليه. ولم تكد تقرر النهوض لتفعل، حتى رن الهاتف من جديد، كم تمقت الصوت المستفزّ اللامبالي؟

التقطت نفسا عميقا، واستحضرت كلام الشرطية : عليها استدراج المتصل دقيقة على الأقل حتى يتمكنوا من تحديد مكانه؟ والتأكد من خطورة الأمر حقا؟

- ألو .. من المتصل؟

- ... (حشرجة صوت كأنه صادر عن اسطوانة مشروخة) ... لقد قلت لك اخرجي حالا من البيت أو أقتلك ..

- (مرتبكة وخائفة) .. لماذا ستقتلني؟ .. ماذا فعلت لك ؟ .. من أنت ؟

في الواقع، لم تدر (كيت) كل الكلام الذي قالته، لقد قالت كل شيء تقريبا. كانت يدها ترتجف وجسمها كاملا وهي تحدث قاتلها المفترض. داعية الرب أن تنتهي هذه الليلة المشئومة بأقل الخسائر الممكنة.

أن تحضر الشرطة في ثوان لتقبض على الرجل، وتحول جسده إلى مصفاة بالرصاصات.

ولقد نجحت في إبقاءه على الخط دقيقة كاملة.

لم تكد تفعل، حتى قفلت الخط بنفسها، وقلبها يدق كسرينة المطافئ ليلة الحادي عشر من سبتمبر.

وكاد يتوقف حين اهتز الهاتف البغيض مرة أخرى، لابد أنها الشرطية التي كانت معها على الخط منذ قليل، قالت (كيت) في نفسها ملتقطة السمّاعة.

- هل أنت متأكدة من أن لا أحد معك بالبيت؟ سألت الشرطية بهدوءها القميء.

- أنا والطفل الذي أقوم برعايته وحسب .. هه .. تتبعتم الإتصال؟

قالت الشرطية بقلق :

- الإتصال من الخط الثاني بالمنزل ..

بهتت (كيت) لحظات، لوهلة بدا أنها لم تفهم كلام الشرطية، قبل أن يشرق شيء في ذهنها، وتقول ضاحكة :

- لقد فهمت الآن .. (تامر) .. الشقي .. هه .. لقد نال مني الوغد. ادعى أنه مريض ونائم لكي أسقط كالمغفلة في مقلبه.

- تأكدي من ذلك إذن .. سنتصل بمشغلك أبلغه بالأمر .. ونرسل شرطيا لمزيد من الحذر.. غادري المكان فورا لو شعرت بالخطر.

- حسن .. قالت (كيت) وهي تقفل الخط، عقلها بدأ بالفعل يصور لها انتقامها من الطفل الشقي،

انتقامها الشنيع.

كشرت عن أنيابها وهي تضع سمّاعة الهاتف، ترسم وجها غاضبا متوحشا وتصعد الدرجات نحو غرفة الفتى، متوعدة بالويل والثبور، وعظائم الأمور.

وهي تصعد السلم تساءلت في عقلها كيف وقعت في الفخ بتلك السهولة؟ أكان والدا الفتى مشتركين معه باللعبة ؟ لأنهما أخبراه بأن الصبي مريض.

ثم كيف نجح في تقليد ذلك الصوت الفظيع ؟

- (تاااامر) .. (تاااامر) .. اخرج لترى !!!

دخلت غرفته وهي تفتح الباب ببطء، كان السكون قد غلف المكان بغتة، وشعرت بأن الشقي سيختبئ خلف الباب محاولا إخافتها.

محاولة أخيرة.

وهي لن تسمح له بإتمام انتصاره عليها، ولا بد أن تنتقم.

دخلت الغرفة بحذر وهي لا تنفك تنادي الفتى.

بحركة خاطفة، نظرت خلف الباب مطلقة صرخة، لكن لا أحدا كان هناك. شعرت بالغيظ والغضب، لن ينجو الصبيّ بفعلته، حتما لن يفعل.

ضغطت زر الإنارة، لكنه لم يعمل. لا، لقد تجاوز (تامر) الحد، فكرت وهي ترسم على وجهها أقصى تعابير الغضب الممكنة، الصبي لم يكن على الفراش أيضا.

- أخرج حالا من مخبأك يا (تامر) .. لقد كشفت لعبتك.

كان شباك النافذة نصف مفتوح، وإزاء الصمت المطبق، تسلل شك مفاجئ لنفسها الفتية. ماذا لو كان هناك شخص ما حقا ؟؟

و (تامر) ؟؟ أين هو ؟؟

فجأة تحرك شيء ما في فضاء الغرفة الذي أخذ يتسلل إليه ضوء القمر من النافذة التي فتحتها نسائم الليل في تلك اللحظة مع صوت صرير خافت، لكنه بدا في ذلك الموقف وبالنسبة لـ(كيت)، نذير سوء.

ووقف جسد ضئيل تحت النافذة تماما.

قالت (كيت) وقد فقدت أعصابها حقا، على حافة انهيار وشيك :

- توقف يا (تامر) وإلا أخبرت والديك.

لكن (تامر) تقدم أمامها ببطء وهو يطلق ضحكات، صوته غريب بالفعل، أو أنه يتقن تقليد أصوات الأسطوانات المشروخة.

بدا وجهه يتضح تحت ضوء القمر الذي غمر الغرفة، كما لو طلّق أخيرا غيمة شريرة حجبته طويلا.

كان الصبي يضحك فعلا ضحكات طفولية، لا يدرك سرها سوى من هم في سنه. لاحظت مبهوتة

أن أظافره طويلة حادة، ويكشف عن فم حيوانيّ بفك متوحش تتزاحم فيه أسنان منشارية حمراء، كفك قرش مصغّر.

وقبل أن تفهم شيئا، إنقض الصبي على (كيت) كقذيفة منجنيق، تعلق برقبة الفتاة يغرس مخالبه في لحمها. ويهوي على جمجمتها بضربات هيستيرية من فكه المنشاري. وبين كل ضربة وضربة أخذ يضحك، يضحك، يضحك.

صرخت (كيت) من الألم، محاولة إبعاد الوحش الصغير عنها. لكنه كان ملتحما بها، مخالبه عميقة في عنقها، والدم يسيل غزيرا في ظهرها. شعرت بلسان هائل يخرج من الفم الحيواني، لسان لزج ساخن، رأته بطرف عينها الملتاعة. يخرج من فم الصبي كأخطبوط هائل يقترب من انفها بإصرار، قبل أن ينغرس فجأة في فمها يكتم صرخاتها. وشعرت بالغثيان والشيء الكريه الحيّ، الذي كان أكثر من لسان، يلتهمها من الداخل كأفعى (موراي) ضخمة.

كان تسقط أرضا في تلك اللحظة، بعد مقاومة فاشلة. وعيها بدأ يتسرب منها مغادرا بلا رجعة.

حين رأت الزوجين (فهمي) يدخلان كقردين متوحشين من النافذة المفتوحة.

كان تعبير وجه السيد فهمي مخيفا وهو يقول :

- للأسف يا صغيرتي، كنت أنت هدية ابننا (تامر). فالفتى يكمل الليلة تحوله ليصبح واحدا منّا. لقد اتصلت بي الشرطية وأخبرتني بكل شيء. يبدو أن (تامر) أراد إنذارك، وهو يقاوم بدون جدوى تحوله الحتميّ. وداعا يا صغيرتي.

الذي فعلناه ..

علمت بوفاة (جون فيليب) البارحة فقط، لذلك أسرعت بركوب أول طائرة إلى القاهرة، حيث كان يقضي إجازته السنوية.

كنت قد تركته منذ أسبوع وحسب، رفقة زوجته (إيفلين)، بعد أن قضينا أياما جميلة في المدينة الساحرة، ختمتها أنا بالعودة لعملي وارتباطاتي في فرنسا، بينما فضل هو الاستقرار هناك حتى إنذار آخر. كان يملك الوقت والمال الوفير، فلم يحرم نفسه؟ قال لي قبيل وداعنا الذي لم أحسب حسابا كونه الأخير – على الأقل كنت اقترضت منه مالا !!– اشترى فيلا هادئة في حي راق، نصحه بها صديق ثري يدعى (لويس) يملك واحدة هناك، وشرع ينغمس في ملذات الحياة ويعتني بكلبيه البوليسيين الضخمين. لم أرتح لـ(لويس) كثيرا وكلبيه، لكن (جون) كان يحبه.

وقد رأيت (لويس) في الكنيسة، وفي الجنازة التي أقمناها بـ(مصر) تنفيذا لوصية (جون)، كان بادي الحزن بشكل أدهشني، فلا أظن علاقته بـ(جون) كانت بتلك القوة، قبل أن أفهم منه أنه دفن كلبيه مؤخرا !!

كان (جون) يظن أن جدّه من أصول مصرية. لذا كان يرى من واجبه أن يعود لأرض أجداده بعد أن انقطع نسله (فـ(جون(لم يرزق بذرية). كانت زوجته (إيفلين) تشكو لي كيف مرض زوجها بعد رحيلي مباشرة، لم تفهم لماذا ذهب هكذا وتركها وحيدة؟ أخبرتني كم هو قاس زوجها حتى بموته !!

أعرف (جون) جيدا، صحته لم تكن دوما على ما يرام، وكثيرا ما كانت مناعته الضعيفة تخذله، كما كان قلبه هشا. لكن أن يموت بالحمى؟ فذلك كان مفاجأة بالنسبة لي.

جلست في صالة الفيلا التي لم يستمتع (جون) بامتلاكها أكثر من شهر. كنت أشعر بألم بين فخذيّ نتيجة التهاب بسيط شعرت به أمس البارحة في غرفتي بالفندق. لذا كنت أتململ في مجلسي وأنا أشرب القهوة التي تتقن (إيفي) صنعها، وأرى أنها حسّنت مذاقها بإضافة نكهات مصرية، صديقها وصديق (جون) يجلس معي وعلى وجهه ملامح التأثر العميق. كان الدكتور (يوسف) في نفس الوقت طبيب (جون) مذ قرّر الإستقرار بـ(مصر). لطالما تخيلت وفاة (جون) بنوبة قلبية قبل

متم الستين، أنا الذي شهدت مرات عديدة صديقي يهوي بلا حراك وقد نفذت بطاريته، قبل أن نشحنها بعمر جديد.

صعدت (إيفي) إلى غرفتها بعد أن استأذنتنا، كانت تشعر بالتعب ولا تكف عن البكاء و التمخّط بشكل جعلني أقرف من القهوة اللذيذة. اعتلت درجات السلم المفضي للطابق العلوي ترافقها الخادمة النوبيّة الجميلة (زهرة). في حين لفت انتباهي د.(يوسف) وهو يتابع ببصره (إيفي) حتى اختفت عن ناظرينا، فترك فنجان القهوة، واقترب مني قائلا بصوت يشي بخطورة الأمر :

- في الواقع مسيو (فرانك) .. لم تكن وفاة مسيو (جون) عادية.

وضعت فنجاني على الطاولة بدوري وقلت باستنكار :

- لا تحاول .. لن تقنعني أبدا بأن (إيفي) سمّمت (جون) !!

- نعم ؟؟

- لماذا تظن ذلك ؟ أعني .. كيف مات إذن ؟

قال (يوسف) :

- أنا لا أظن شيئا يا مسيو (فرانك) .. ما أردت قوله هو أن مسيو (جون) لم يمت بمرض عادي.

لوهلة خلته سيقول أنه قتل. تنفست الصعداء وقلت :

- أرجو أن تشرح أكثر يا دكتور.

لاحظت حيرة في عينيه، يحاول البحث عن كلمات مناسبة، كمن يوشك على قول شيء صعب التصديق، خطير.

وقد كان فعلا.

• • •

حاولت ضبط أعصابي قدر الإمكان، وأنا أقود السيارة نحو الفندق. ذهني يسترجع كلام الدكتور (يوسف) في فيلا (جون)، بتركيز وقلق شديدين. كان الدكتور مندهشا مما حصل. وكنت أكثر اندهاشا حين فهمت ما أصاب صديقي.

وتوقفت كثيرا عند وصف د.(يوسف) لأعراض المرض، الذي قضى على حياة صديق عمري.

فيروس نادر لا أدري كيف أصيب به (جون)؟

وكيف التقطته أنا أيضا ؟

لم أخبر د.(يوسف) بالطبع، لكنني لاحظت من نظرة عينيه الخبيرة أنه اكتشف ارتباكي عندما حدثني عن أعراض المرض، التي تقود لموت فظيع.

أولى هذه الأعراض، التهاب مصحوب ببثور حمراء في منطقتي السفلية.

في الفندق، اكتشفت في خلوتي بالحمّام يقينا من أنني بدأت أطوّر نفس الأعراض الأولية، وفكرت فيما يجب علي فعله. سأستشير طبيبا اختصاصيا بالجهاز التناسلي بالتأكيد، لن أنصت لكلام ذلك المخبول د.(يوسف).

قضيت بقية نهار اليوم أطوف شوارع القاهرة بحثا عن ضالّتي، وقد وفقت في العثور على دكتور بريطاني في مصحة استثمارية. طمعت في أن يفنّد كلام ذلك الدكتور المصري المعتوه.

لكنه لم يفعل أكثر من تأكيد اندهاش الدكتور (يوسف) لطبيعة المرض. وتسلّم مبلغ طائل نظير استشارة لم تقدّم شيئا، سوى ربّما التعجيل بنهايتي.

جلست تلك الليلة في سرير الفندق أضرب أخماسا في أسداس. لا أعرف من أين أبدأ ؟ ماذا حدث ؟ ماذا فعلنا أنا و(جون) لتصيبنا اللعنة؟

ما الذي فعلناه في الأسبوع الذي قضيناه نمرح مكتشفين هذه المدينة الملعونة؟

عشرات الصور تتقافز أمام عينيّ، دون أن أستطيع الإمساك بواحدة وأنا في حالة نفسية يرثى لها. تساءلت من قبل كثيرا عن نفسية المنتحر، لا ريب أنها حالتي في هذه اللحظة. تحسست مسدسي الأوتوماتيكي في الدرج الملاصق للسرير، لكنني لم أجرؤ.

ما الذي فعلناه يا (جون)؟

حاولت الإستلقاء، وقد بدأت أشعر بالبرد والحمى، لكن النوم تبرأ منّي، فعدت لحظات اعتدل فوق السرير. يجب أن أكلّم د.(يوسف)، لا بد أن أفعل. بحثت عن عنوانه في دليل الهاتف، مستعملا الرقم الذي أعطانيه صباح اليوم.

نصف ساعة بعد ذلك، ركنت سيارتي أسفل العمارة التي يقطن في إحدى شققها الدكتور، بعد صراع مرير وسط شوارع مزدحمة سرت فيها بسيارتي سير السلحفاة، على نحو ضاعف من سوء حالتي، وتمنيت في قرارة نفسي، وأنا أرفع رأسي أتأمل العمارة الشاهقة، بأن يجد د.(يوسف) لي حلا، وإلا رميت بنفسي من هناك، فوق.

استقبلني (يوسف) بابتسامة شاحبة، كان يتوقع، كما قال لي ونحن نشرب فنجاني قهوة في الصالة، بأن أحضر الليلة. لذلك انتظرني بالبيت ولم يذهب للعيادة.

بدت لي القهوة بدون طعم، لكنني تجرعتها رغم ذلك مقنعا نفسي بأنها حالتي التي جعلتني أفقد طعم الأشياء. وسألته لماذا تأخر ظهور الأعراض عليّ عكس (جون)، فقال إن (جون) مناعته ضعيفة سهلّت عمل الفيروس. ثم طلبت منه أن يصارحني كم بقي لي من الوقت على هذه الأرض.

- هذا يتوقف، قال بجدية، على طبيعة الفيروس نفسه .. يجب العثور على مصدر الفيروس .. أنت متأكد من أن علاقاتكما في الفترة الأخيرة طبيعية ؟

- بالطبع، قلت مغتاظا لكنني عدت فاستدركت بخفوت، لقد قمنا بعلاقة مع مومستين في إحدى الليالي فقط، كان (جون) قد اقترح عليّ الذهاب لكباريه في شارع (الهرم)، وأكّد علي عدم إخبار زوجته. وقد أخذتنا فتاتان إلى بيت دعارة.

هز (يوسف) رأسه، وقال بعد لحظة تفكير :

- يجب العثور على الفتاتين إذن؟

- كيف ؟؟، قلت أتعلق بالقشة

- أظن أنني أستطيع مساعدتك.

• • •

بصفة غير رسمية، ساعدنا ضابط شاب يدعى (وليد)، ذو صدر عريض وشارب كث. بدا من الواضح أنه له سمعة طيبة في الأحياء الشعبية. ولا أدل على ذلك نظرات الخوف والحقد والكراهية التي أحاطت بنا، الضابط د.(يوسف) وأنا، ونحن ندخل أزقة شبيهة بالأدغال نحو بيت متهالك قديم. يبدو أشبه بحظيرة خنازير.

تعثرنا ونحن ندخل في أطفال عراة كخنازير صغيرة تتمرغ في الوحل سعيدة، وقابلنا سيدات بدينات قبيحات من نفس النوع. يحيط بهن إهاب من الحذر وسذاجة مدعاة.

ثوان بعد دخول الضابط شقة من الشقق التي تبدو زنزانة سجن في فرنسا مقارنة بها، جناح فندق 5 نجوم. سمعنا صراخا وصفعات مدوية، قبل أن يخرج الضابط يجر من ذراع أبيض فتاة بالغت في وضع الأحمر على شفتين غليظتين وخدود تشي بوضوح لصغر سنها.

لا أعرف كيف خدعتني هذه الفتاة القاصر تلك الليلة ؟

كنت سأنقض عليها لولا رأيت تعبير وجه الضابط الصارم. وهو يأمرنا بالنزول إلى السيارة. ما زال يكيل الصفعات للبنت التي تلملم بقايا ثيابها مغادرة الشقة وسط مشادات وصرخات من ظواهر نسائية أخر بالداخل. والبدينات على السلم المتسخ يشاهدن المسرحية لا مباليات شأن من اعتاد على مثل تلك المهازل.

في مخفر الشرطة، ظلت الفتاة على حالها في مكتب الضابط. أنكرت معرفتي تماما حتى أنني كدت أخنقها بيدي لولا تدخل د.(يوسف) والضابط. فقدت أعصابي والحمّى بدأت تنال من وعيي بشكل كبير لولا المسكنات التي وصفها لي الدكتور والتي بدأت تفقد تأثيرها.

كنت أشعر بنهايتي تقترب وقد انتشرت البثور المؤلمة بظهري كله، الألم يلتهم عمودي الفقري التهاما. الفتاة التي ربما تحمل بقايا أمل لي في الحياة لا تريد التحدث.

طلب الضابط منا الخروج ربع ساعة، كانت كافية له حين رجعنا لتنزل الفتاة باعترافات تفصيلية. بالطبع لاحظت أن وجهها كان مزينا بألوان زرقاء إضافة إلى أحمر مساحيق التجميل، لا ريب أن الصرخات الشنيعة التي صمت آذاننا كافية لتشفي غليلي في تلك العاهرة الملعونة. لن أصفع أحسن من كف هذا الضابط الأشبه برفش عريض.

حين أخبرني د.(يوسف) بترجمة المفيد من اعترافات الفتاة، صعد الدم لرأسي حتى أن الدكتور أسعفني بالكاد من أزمة قلبية ليتها رحمتني.

لقد عرفت من المسئول عن وفاة (جون)، وعن نهايتي أنا الحتمية. والأدهى أن لا فرصة أمامي للنجاة.

كيف ؟؟؟

• • •

صرخ الضابط بقوة وهو يلوح بمسدسه في وجهي، كان قد دخل بهو فيلا (لويس) رفقة جيش من العساكر. لكن الأوان قد فات. لم يكن (لويس) أو رجاله يملكون أدنى فرصة، وقد أسقطتهم برصاصات مسدسي الأوتوماتيكي.

كنت قد دخلت الفيلا، وفاجأتهم في جلسة ماجنة. أطلقت رصاصاتي عليه وفتاتيه، ورجال حرسه الثلاثة. قبل أن يدخل رجال الشرطة لإيقافي.

عرفت منذ تعرفت عليه أن (لويس) لم يكن شخصا شريفا، منغمسا باللذات والجنس في بلد تبيع فيه الفتاة جسدها من أجل لقمة خبز. لكن أن يتاجر في أشرطة الجنس الشاذ ؟

ومع حيوانات ؟؟

كانت الباغيتان اللتان مارسنا معهما، قد مارستا مع كلبي (لويس) اللذان قضيا، وقضى معهما آخر أمل لي بالحياة. لقد قال د.(يوسف) إن المرض نادر ولا يصيب غير الحيوانات. بأن انتقاله للبشر غير معروفة تأثيراته، الآن أعلم أنه لم يؤثر في العاهرتين اللتين نقلتاه لنا، (جون) وأنا، وأنه فتاك لجنس الذكور.

أرقد بالمستشفى، آلام رهيبة تفتك بجهازي العصبي، المسكنات تخفف من آلامي و تؤجل نهايتي. وليتها عجلت. على الأقل لن أفكر بكل الندم، فيّ و في (جون) !!

وفي الذي فعلناه؟

أنتم أيضا .. ستموتون

كانت لحظة الإعدام قاسية بالنسبة لـ(هشام).

رأى الضابط (حسام) ينظر إليه بسخرية وهو يدخن سيجارة، وينفث دخانها ببطء.

لقد عمل (هشام) مع (المعلم عنتر) سنة كاملة في ترويج المخدرات، وحين قرر أن يتوب، أبلغ الضابط (حسام) بكل شيء عن عصابة (المعلم عنتر)، واتفق معه على كمين للقبض عليه متلبسا.

حينها شعر بالإرتياح، وأنه يزيح عن كاهله ثقلا كبيرا، ويرضي ضميره بتخليص البلد من أحد تجار السموم.

وكم شعر بالخيانة والغدر والقهر حين إكتشف أن الضابط (حسام) كان يعمل لصالح العصابة منذ زمن.

وأن الكمين كان في الحقيقة معدا له هو.

وكان اكتشافه متأخرا، جدا !!!

لقد أذاقه رجال (المعلم عنتر) من فنون الركل والضرب ألوانا.

وتقرّر أن يهرق دمه.

ولأن (المعلم عنتر) وحشي مع كل من يعارضه، فقد قرر أن تكون تصفية (هشام) الخائن بطريقة بشعة.

طريقة لا تجعل أحدا يفكر - مجرد التفكير - في معارضته.

قرّر أن يجعله عبرة لمن يعتبر.

وأن يفصل رأسه عن جسده.

وأعد مقصلة جميلة للاحتفال الدموي.

• • •

كانوا هناك، أربعة، في المخزن القديم في الميناء.

الضابط (حسام)، (المعلم عنتر) مع ذراعه الأيمن (عباس)، و(عدنان) رجل الأعمال وشريك (المعلم) في تجارته الشيطانية.

كان (هشام) يغلي غضبا وغيضا. لم يعد يخشى الموت وقد صار قريبا. لم يعد يتمنى سوى أن ينقضّ على هؤلاء الوحوش ويمزّقهم تمزيقا.

وضع (عباس) رأس (هشام) في مكانها المناسب بالمقصلة، والتفت إلى زعيمه منتظرا الإشارة.

قال (المعلم عنتر) لـ(هشام) بسخرية :

- والآن يا (هشام) ... هل لديك شيء أخير تقوله؟

رد (هشام) وهو يبصق في وجهه :

- نعم ... اذهبوا إلى الجحيم.

إحمر وجه (المعلم عنتر) غضبا وهو يقول رافعا يده :

- حسن أيها الأحمق ... سنرى من يموت أولا ليذهب إليه.

وهوى بيده في إشارة لـ(عباس)، ثم سمع (هشام) يصرخ :

- أيها الأوغاد ... أنتم أيضا ستموتون ... وبنفس الطريقـــ ....

لكن صوت الطرف الحاد للمقصلة بتر عبارته، و .. وحياته.

سقطت الرأس أرضا مع بركة دم.

رمى الضابط (حسام) سيجارته أرضا وهو يطأ عليها بحذائه، يتساءل متى ينتهي هذا السخف ليخرج من هنا.

لكنه تجمد في مكانه من الرعب، وهو يسمع صوت (هشام) مكررا :

- أنتم أيضا ستموتون ... وبنفس الطريقة ..

نظر إلى (المعلم عنتر) و (عدنان)، كانت أعينهما متسعة دهشة وهلعا.

أما (عباس) الذي كان ينفذ الإعدام، فقد تراجع بعصبية وهو ينظر إلى الرأس المقطوعة.

وقال لـ(معلمه) وهو يرتجف :

- لقد ... لقد ... لقد تكلمت الرأس يا معلمي

قال الضابط وهو يتقدم بجرأة إلى المقصلة :

- هراء

وانحنى ببطء ينظر إلى رأس (هشام) الملوثة بدم لا زال ينزف ساخنا، وحركها بحذر كأنما يداعب ثعبانا مريضا بالأعصاب.

قبل أن يحمل الرأس مطمئنا، ويقول وهو يلوح بها من شعرها لرفاقه، راسما ابتسامة شاحبة :

- هل رأيتم ؟ ... إنه ميت ... لقد كان الصوت مجرد صدى لعبارته الأخيرة

• • •

توقف (عدنان) بسيارته المرسيدس البيضاء أمام العمارة الشاهقة التي تحوي مقرّ شركته في طابقها السادس، وعقله يستعيد ذكرى مشهد الإعدام الذي نفذ ليلة البارحة.

وعبارة (هشام) الأخيرة.

لم يكن (عدنان) ليؤمن بالأشباح، ولا حتى بالجن، وكانت تلك الخزعبلات - كما يسميها - مجرد أوهام اخترعها الإنسان ليجعل لنفسه عدوا جديدا يحاربه، أو ليضع تفسيرا لظاهرة عجز أن يجد لها تفسيرا علميا مقبولا.

دخل بوابة العمارة، مط شفتيه ضيقا وهو يلاحظ غياب البواب عن قيامه بواجب الحراسة. سيقول، كما يقول له كل مرة وبّخه، إنه يصلي نافلة الضحى.

وكان (عدنان)، حتى وهو يستقل المصعد، يتذكر بسخرية كيف كان (المعلم عنتر) يرتجف كل تلك الليلة، ولو حاول أن يبدو متماسكا، وكيف حاول هو إقناعه بنسيان الأمر.

وكأنما لينفض عنه كل تلك الأفكار، لوح (عدنان) برأسه يمينا وشمالا وهو يضغط الزر

ولم تنغلق ضلفتا المصعد.

ضغط الزر مرارا، وهو يغمغم بكلمات ساخطة.

فجأة، تحرك المصعد لأعلى بسرعة وهو يرتج بشكل غير طبيعي.

وترّنح (عدنان) في وقفته ورأسه تميل خارج عتبة المصعد، الذي كان في طريقه للأعلى، بطريقة خطيرة.

ثم، لم يجد الوقت للصراخ.

• • •

بعد ليلة قضاها (عباس) في الشرب، نهض من فراشه متثاقلا وهو يلعن ويسب معلمه (عنتر) والناس أجمعين. كان متأكدا من أن رأس (هشام) المقطوعة تكلمت. لقد رأى شفتيه تتحركان، وشاهد عينيه تتقدان حقدا وغضبا.

لقد قتل (عباس) أشخاصا كثيرين - ببرود - ودون أن يطرف له جفن.

لكن، هذه المرة ، كان قلبه يرتجف خوفا.

حاول نفض مخاوفه، وإقناع نفسه بأن (هشام) ورأسه يرقدان الآن في قالب إسمنتي كبير في قاع البحر، حيث لن يزعجا أحدا بعد.

اتجه صوب النافذة ليستنشق بعض الهواء النقي، وفتح شباكها مادا يديه.

أزعجه ضوء الشمس الساطعة في عينيه، فغطّاهما بذراعه لحظات.

وبعد أن اعتادتا الضوء، عاد ينظر إلى الشارع.

كان يسكن في الطابق الثاني من عمارة بعشر طوابق.

حين مّد رأسه ليلتقط نفسا عميقا، كان ذلك أخر نفس دخل رئتيه.

وبعد أن رأت المشهد، أغمي على الفتاة المسكينة في الطابق العاشر والتي ألقت، عفوا، في تعثرها الصينية المعدنية ذات الطرف الحاد من النافذة.

• • •

كان (المعلم عنتر) عصبيا جدا وهو يدخل إلى مصنع الأخشاب الذي يملكه قرب الميناء، أخذ ينهر العمال وقد احمر وجهه، وانتفخت عيناه، بعد ليلة بيضاء هاجمته فيها كوابيس فظيعة. وأمام إحدى آلات قطع الخشب وقف يعاتب رئيس العمال على بطء وتيرة العمل، على تأخرهم عن موعد طلبية ما. يدرك وحده أنها ستكون محملة بشحنة مخدرات جاهزة للتهريب، بينما الرجل المسكين يرتجف وهو يقسم أن العمال يبذلون أقصى طاقاتهم.

ثم أمره (المعلم عنتر) بالإنصراف وإتجه صوب مكتبه، الذي يشرف من فوق على العمال.

حين تعثر في جلبابه، وحاول الإمساك بأي شيء لكي لا يسقط.

ويبدو أنه حين أمسك بذراع إحدى الآلات مال بطريقة خطيرة لتقع رأسه أمام منشار آلة القطع.
وأغرق الخشب لون أحمر.

• • •

علم الضابط (حسام) بموت الثلاثة في ظهيرة ذلك اليوم.
وقد حضر بنفسه معاينة الحوادث.
كان الخوف يحطّم أعصابه الفولاذية، كمطرقة هائلة من الصلب تهوي على زجاج هشّ.
هل كانت هذه صدفة أن يموت هؤلاء بهذه الطريقة البشعة ؟ بأن تفصل رؤوسهم عن أجسادهم ؟
أم أنها لعنة (هشام) التي أطلقها في لحظاته الأخيرة ؟
حقا لقد كان انتقام (هشام) سريعا !!!
ولأن المصائب لا تأتي إلا تباعا، فقد أبلغوه صبيحة هذا اليوم أن (عويس) سفاح النساء الشهير، والذي سبق وألقى عليه القبض قد فر من مستشفى المجانين.
وقضى بقية اليوم في البحث عن الهارب في الأماكن التي يحتمل أن يلجأ إليها.
لهذا، فحين عاد إلى البيت في ساعة متأخرة من الليل، كان كل ما يفكر فيه هو النوم.
كان مرهقا بشدة، خائفا للغاية، ورؤوس (عباس) و(عدنان) و(عنتر) تتراءى أمامه في كل لحظة، كابوسا لا يرحم.
أمام المرآة في بهو الشقة المظلمة، فك أزرار بزته الرسمية، ووضع قبعته على الطاولة نازعا سترته.
وما كاد يعلقها على المشجب حتى شعر بأنه يختنق.
رفع عينيه إلى المرآة ليرى أبشع كوابيسه.
كان رجلا ضخما كحائط إسمنتي، يضع قناعا على وجهه. لم يشك الضابط لحظة أنه (عويس) يحيط عنقه بسلك فولاذي رفيع، ويضغط عليه بشدة.
حاول (حسام) أن يدخل يديه بين السلك وعنقه ليدافع عن حياته، لكن (عويس) بجسده الضخم و ذراعيه القويتين كان يضغط بشدة.

إزرقّ وجه حسام وبدأت علامات الحياة تفارقه، كان قلبه ينبض بشدة ورئتاه تصرخان طلبا للأكسجين.

وقبل أن تظلم الدنيا تماما أمام عينيه، رأى وجه (عويس) في المرآة يبتسم بقسوة ووحشية.

وخيل إليه أنه وجه (هشام) نفسه.

ورغم أن جسد الضابط تراخى وقد غادرته الحياة، فإن الرجل الضخم واصل الضغط بالسلك الفولاذي، حتى ..

حتى فصل الرأس عن الجسد.

ووقف (يوسف) أخ (هشام) الأكبر – الذي لا يعلم أحد بقرابتهما - ، ينظر للرأس المتدحرجة أرضا، يبصق عليها وهو يشعر بالرضى أخيرا بعد أن أتم انتقامه.

كان على علم بتوبة أخيه، ولما اختفى، بعد اختطاف العصابة له، شرع يبحث عنه. حتى عرف بقصة الإعدام من أتباع (عباس). تسلل خفية للمصنع المهجور، لكنه جاء متأخرا.

هو من كرّر عبارة أخيه الأخيرة، دون وعي. فقط ليدرك بعد ذلك مهمته.

وأن القدر اختاره ليكون آداة تنفيذ اللعنة.

عطّل المصعد الذي يعرف أنه يقّل (عدنان) لشركته، وانتظر هذا الأخير مستغلا غياب البواب. ليحصد أول رأس.

ولم يكن دخول شقة (عباس) بالأمر الصعب، فالرجل من شدة سكره لم يكلف نفسه عناء إقفال باب الشقة. انتظره حتى استيقظ وفصل رأسه بضربة فأس واحدة وهو ينظر من النافذة.

وبما أنه كان أصلا يعمل في مصنع الأخشاب، فاقتناص فرصة لدفع (المعلم عنتر) إلى آلة القطع، كان سهلا. وقد بدا كما كان يحاول إنقاذ معلمه.

أخرج سيجارة مجّها لحظات، تأمل فيها رأس الضابط، قبل أن يغادر الشقة وصورة أخيه (هشام) تلح على عقله، مع ابتسامة رضا كبيرة.

هل كان يعلم بوجوده بالمصنع المهجور، حين أطلق لعنته :

- أنتم أيضا .. ستموتون ؟

حادثة سير

-(1)-

أظن أنني كنت أقود السيارة منذ ثلاث ساعات في تلك الطريق المهجورة، مضت دون أن أشعر فيها بسيارة أخرى أو بمخلوق غيري. أو هكذا خيل لي، لأنني غالبا ما أقود وعقلي شارد في مناطق قلقة بذكرياتي. أو أتوه خارج زجاج السيارة بعيني، وقد غلف الظلام طبيعة المكان الصحراوية بمعطفه الأسود الثقيل، فرسم لوحة عنوانها الغموض والرهبة.

كانت أنوار السيارة الشاحبة تكشف عن صحراء رمادية، لانهائية. تبعث في نفسي، مع شعوري بالبرد الذي يتفاقم، إحساسا غير مبرر بالخوف. شغلت الراديو وبحثت عن محطتي المفضلة، كانت تذيع مقاطع صاخبة أحبها، فأخذت أدندن وأنقر بأصابعي المتجمدة على مقود السيارة. ضوء القمر يتسلل في الأفق بحياء خلف غيوم بيضاء رمادية، ويفضح الطبيعة الليلية الكئيبة للمكان. شعرت بحكة في عنقي وأنا أقفل الراديو، بعد أن تيقنت من أن الموسيقى الصاخبة لم تنجح سوى بمضاعفة توتري. وهربت من ذلك الشعور البغيض بمحاولة فكرية في طرق سراديب عميقة متربة بذاكرتي، أحاول استرجاع صور طفولة مضطربة، طواها ظلام النسيان ربما للأبد.

كنت (فريد غسان)، مندوب مبيعات، في طريقي لمسقط رأسي، بعد غيبة طويلة نوعا. لم أعد أرى والديّ إلا لماما، ولا ينكران هما بأن ذلك يسعدهما. فقد سببت لهما الكثير من الألم. لكنني أزورهما كل ما دعت الظروف لعمل ما بمدينتي التي شهدت طفولتي. والدي، في مدفن العائلة، حيث يرقد هناك منذ تلك الليلة المشئومة وذلك الحادث الذي أودى بحياته وأختي الصغيرة. ووالدتي في مأوى العجزة، وقد فقدت عقلها، وصارت بالكاد تتذكرني، لسانها لا ينفك ينادي اسم الصغيرة (لبنى).

خيل إلي أنني ألمح عيونا تبرق في ظلام الصحراء وبردها. قد تكون هلاوس بصرية، لكن الصحراء تعج بالحياة، وربما مئات المخلوقات تمرح هناك الآن تحت ستار الظلام. لست وحيدا كما ظننت أبدا. .أبدا.

-(2)-

حدث ذلك بسرعة خاطفة.

دست على الفرامل بأقصى قوة، قلبي يدق بعنف متواصل حد الإنفجار. تتوقف السيارة أخيرا بعد أن استهلك الموقف أعصابي كلية. على ضوء المصابيح الأمامية، أرى أنني توقفت سنتمترات قليلة من ساقين رقيقتين لفتاة بثوب طويل رقيق أبيض. لا أكاد أصدق أنها ظهرت فجأة أمامي، لكنها ظهرت فجأة أمامي.

نزعت حزام السلامة ببطء، وأنا أشعر بقلبي يدق في جمجمتي بعد أن تبادل الأدوار ومخّي. ترجّلت من السيارة وأنا أرمق على نور السيارة الفتاة التي كانت ترتجف، نعم كانت تهتز ارتجافا. وجه طويل نحيف يعكس ملامح الخوف، العرق يسيل منها ويجعل شعرها الأسود الطويل الفاحم ملتصقا بعنقها.

كان الضوء الساطع لمصابيح السيارة الأمامية يتألق في ثوبها الأبيض فيعطيها وصف الملاك، لكن منظرها كان يثير في مشاعر متناقضة. خوف غريب، ثم شفقة وعطفا. نفضت مشاعري لحظة قلت فيها بصوت مرتبك وجل :

- هل أنت بخير ؟

نظرت إلى قدميها الحافيتين، وقد ازرقتا من البرد، آثار خدوش واضحة أدمتهما وعفرتهما بالتراب.

وعاودني إحساس مقبض بالخوف. أ أكون في حضرة "سيدة بيضاء" ؟ (*)

"سيدة بيضاء" أو "رمادية" (من ملابسها أو الضوء الباهت الذي يصدر منها) مصطلح يطلق على الأشباح التي تظهر دائما في نفس الأماكن، غالبا ما تعرف هوياتهم والسبب الذي يجعل أرواحهم قلقة، من طرف الناس الذين يترددون على نفس الأماكن ويرونهم باستمرار. ما يجعل تلك الظاهرة تعتبر "أسطورة حضرية" هو اقتران ظهور تلك الأشباح مع منتصف الليل. وتسكن السيدات البيض

(*) عن الفرنسية (Les Dames Blanches) : ترد قصص السيدات البيض بصفة متكررة في الفولكلور العالمي، بصفة عامة كأرواح هائمة معذبة، تنتقل من مكان لآخر، حتى تحين الساعة. الفولكلور الفرنسي والأوربي مثلا زاخر بقصص من ذات النوع. بعض السيدات البيض ينقذن المسافرين من حوادث (كتحذير قبل منعطف خطير مثلا)، وبعضها كائنات مراوغة خدّاعة، تستعمل حيلا (كأن تترك أثرا ماديا : منديل، مظلة، معطف .. إلخ) لكنها غالبا لا تفعل شرّا أكثر من جعل المسافرين يتيهون عن طريقهم.

مفترقات الطرق والجسور، حيث ترمز هذه الأماكن لصلة وصل بين عالمنا والعالم الآخر. وصورة (المرأة بلباس أبيض) صورة كلاسيكية متكررة لمخلوق سماوي في الفولكلور الأوربي.

والفتاة جميلة فعلا، عيناها زرقاوان كحسناء أوروبية.

قالت مجيبة بصوت مرتجف :

- نعم، أظن ذلك ..

- ماذا حدث لك ؟؟ .. معذرة فلم أرك تعبرين الطريق .. لقد ظهرت فجأة.

بصوت مرتجف حمل على الرغم من ذلك رنة ولحنا مميزين لم أدر كيف أثارا في قشعريرة :

- .. حادثة .. السيارة اصطدمت بالصخور.

وأشارت بأصبعها، لم أتبين شيئا في ظلام الليل، والقمر يلعب لعبته السخيفة في الإختباء الآن بالضبط خلف غيمة.

يبدو كل هذا مريبا ..

لكنني أشفقت على الفتاة فعلا.

- هل أنت متأكدة بأنك بخير ؟؟ .. لا كسر هنالك ؟؟

لم تجب، ظلت ترمقني بعينين نفاذتين أصاباني بذات القشعريرة. قبل أن تتقدم خطوة مني، وترتمي في حضني دون سابق إنذار كاتمة صرخة اندهاش أفلتت من فمي.

كانت تطوقني بقوة، وهي تذرف دموعا غزيرة. أصابني الموقف بالحرج، غير أنني لم أجرؤ على دفعها بعيدا. وأحطتها بذراعي لا واعيا أربت على رأسها وأنا أشعر ببرودة جسدها.

كم من الوقت انتظرت في هذا الجو القارص؟ بهذه الملابس الخفيفة ؟

- (3) -

- تعالي بالداخل .. أنت تحتاجين بعض الدفء.

استلقت على المقعد الأمامي بقربي، وشعرت بأنها في طريقها للنوم من الإرهاق.

قلت وأنا أحاول تشغيل الهاتف :

- اللعنة .. أردت الإتصال بالشرطة أو بالإسعاف لكن لا شبكة هنا في هذه الصحراء المقفرة.

قلت بعد فترة وأنا غير متأكد من أن الفتاة تسمعني حتى :

- أظن أننا على مقربة كيلومترات ثلاث من بلدة ما. لو ما زالت ذاكرتي تسعفني .. هل كنت وحدك بالحادث ؟؟

لكن الفتاة لم تسمعني بالقطع لأن صدرها أخذ يصعد ويهبط ببطء كالنائمة، ملقية رأسها للخلف. كاشفة عن رقبة أخاذة لا أنكر أنها أبهرتني دقائق شدتني إليها دون وعي.

لماذا أشعر بأن شيئا ما ليس على ما يرام ؟

مددت يدي لدرج السيارة أخرج كشافا قصيرا. يجب أن أرى الحادثة التي تدّعي هذه الفتاة أنها ضحيتها.

لن أكون أنا ضحية خدعة.

حاولت اكتشاف شيء في الظلام بالخارج، طبعا تركت السيارة، لكنني لم أنس المفاتيح، فلست مغفلا. المشكلة أن لا أثر لحادثة سير وقعت هنا. هل كانت الفتاة كاذبة ؟

لكن آثار الخدوش على قدميها يمنحانها عذرها، فلا ريب أنها قطعت مسافة طويلة حتى هنا. إذن سيارتها على مقربة من هنا أمامنا، فلم أر في طريقي حادثة ما.

عدت إلى السيارة بعد دقائق. كانت قد استيقظت، وملامحها تنظر لي كالمشتتة، كما لو تراني لأول مرة. لا ريب أن الصدمة لحست مخها لحسا.

- لم أجد أثرا للسيارة ؟ .. أين حصل الحادث بالضبط؟

- حادثة ؟؟ .. أية حادثة ؟؟ أين أنا ؟؟ من أنت؟؟

- ألا تذكرين ؟

- لا .. أرجوك .. لا تتركني .. ابق معي الليلة .. لا تتركني وحيدة.

- لا تقلقي .. لن أتركك .. اهدئي

هذا ما كان ينقصني !!!!

-(4)-

- لابد أنها الصدمة .. لقد تعرضت لحادث ما .. ستتذكرين حالا

قلت على أمل لطمأنتها، كانت تبدو بحال يرثى لها وهي ترتجف، ثم انخرطت في نشيج مكتوم. لا تدري – أظن – ماذا يحصل لها.

- لا تتركني من فضلك .. ابق معي هذه الليلة

أشعر بعينيها تخترقانني حتى أعمق الأعماق. لا أستطيع رفض طلب لها.

حسمت رأيي وأنا أعود لمقعد القيادة، ستبقى معي الفتاة حتى نصل أقرب بلدة، أو قسم شرطة.

لن أتركها وحدها بهذه الحال طبعا. وأتمنى أن لا أندم على هذا.

عاندني مذياع السيارة عاجزا عن التقاط شيء غير موجات متداخلة أزعجت أذني. هاتفي لم يعمل بعد، أي نحس هذا ؟ ليست هذه أول مرة أسلك فيها الطريق، ولم يسبق أن حصل هذا معي. تراني تهت في طريق أخرى؟ اللعنة ؟؟

توقفت الفتاة عن النحيب لحسن حظي، فأعصابي كانت مشدودة للغاية وأنا أشعر بحنين قاتل لعلبة سجائري. بين حين وآخر أنظر لجانبي الطريق علّ شبح نور يدلني على موقع الحادثة المزعومة. لكن الدقائق مرت تلو الدقائق دون أثر لسيارة اصطدمت بالصخور.

تضاعف الشك في داخلي، وأخذت أرمق الفتاة التي كانت تضم ذراعيها حول صدرها من البرد. لم تعد تثير في الكثير من الشفقة، وأنا عاجز عن تصديقها.

قلت لها محاولا نفي التوتر جانبا :

- ما اسمك ؟

أجابت بصوت متشنج :

- (لبنى)

لا ريب أن تعبير وجهي كان فظيعا لأن الفتاة نظرت لي برعب ورأسها يتراجع للوراء بحركة سريعة، مطلقة صرخة :

- ما بك ؟ .. ماذا هناك ؟

لكنني لم أستطع أن أجيبها وأنا أفقد السيطرة على السيارة، صخور رمادية كئيبة نبتت من العدم وهي تتجه نحونا بمنتهى السرعة.

وأظلمت الدنيا في وجهي.

-(5)-

حين عدت لوعيي، أحسست بشي في فمي. تبين لي أنه شعر، شعر طويل فاحم. قلت لوهلة بأنه للفتاة التي كانت رفقتي بالحادث، قبل أن أكتشف شيئا لا يصدق.

حين جذبت خصلة الشعر أحسست بألم. مددت يدي لرأسي لأجد بالفعل أنه شعر رأسي أنا.

مذهولا، غير قادر على النطق، نظرت ليدي اللتان تغيرتا. لجسمي كله.

لقد فقدت جسدي.

نزلت بعيني أرى مصعوقا النهدين اللذين نبتا دون سابق إنذار بصدري. كانا يبدوان تحت رداء أبيض خفيف. فسارعت مادا يدي أتأكد من وجودهما حقا، قبل أن أحس بشعور مقبض في معدتي كالغثيان. الدم يفر من وجهي الذي أحسسته باردا، باردا.

بلا وعي مددت يدي بين رجلي، وكدت أفقد الوعي، قلبي يدق كالطبول لإكتشافي المريع.

أمسكت رأسي بيدي حتى تكف عن الأرض عن الدوران. مكتشفا أنني جالس على رمال وحصى بارد كقطع جليد صغيرة. وأن لي ساقا فتاة نحيفتان.

أطلقت صرخة أخيرا، فقط لأكتشف صوتا حادا يخرج من حنجرتي، لا يمت لصوتي بحال.

ماذا يحدث ؟؟

الفتاة (لبنى).

إنه جسدها.

نظرت لحولي برعب، وأنا أشعر بالبرد يغرس خناجره في لحمي. الرداء الخفيف الذي أرتديه لا يحميني البتة. نهضت من الأرض محاولا التعود على جسدي الجديد. والشعور بالغثيان يتفاقم. أنا في ورطة حقيقية.

حاول تذكر ماذا حصل، علّني أفهم شيئا. لكن الذكريات بدأت تتلاشى من عقلي، والبرد والظلام يشتتان تفكيري. أشعر بألم في قدميّ الحافيتين، والحصى الجليدي يؤلمني ويجرحني. عليّ تحريك أطرافي فورا وإلا متّ من البرد. فركت يدي الجديدتين تحت ذراعيّ. وأنا أحاول التفكير في ما يحدث لي.

كنت أتحرك متعثرا، تؤلمني خطواتي على الأرض الباردة، القمر ينظر لي من خلف الغيوم الرمادية ساخرا. ولا شبح حياة بالأفق. اقتربت من الطريق لحسن الحظ، عليّ أن أتكلم مع مخلوق حي، علي أن أتأكد بأنني أعيش كابوسا بغيضا.

لماذا نطقت الفتاة التي صرت في جسدها اسم أختي ؟؟ أكانت مصادفة ؟؟

أذكر الآن الحادثة، منذ عشرين سنة، أنا أسوق السيارة في هذه الطريق نفسها، الأضواء الباهرة من شاحنة مسرعة، ثم اصطدامنا بالصخور على جانب الطريق.

توفي والدي فورا وأختي الصغيرة (لبنى)، لكنني حتما لم أكن السبب في وفاتهما. كانت حادثة. شعرت بالذنب لفترة، لكنني توصلت للإقتناع بأن ذلك كان قضاء وقدرا.

حاولت تذكر شيء عدا الحادثة فلم استطع. يا للهول !! نسيت اسمي حتى.

عرق بارد يسيل من جبهتي ورأسي يكاد ينفجر .

(لبنى) لم أعد أذكر غير الإسم (لبنى).

وأنا لا أشعر بخطواتي، بدأت أفكاري تتلاشى وتتداخل. لا أذكر سوى حادثة ، اصطدام بالصخور.

وبأن اسمي (لبنى) !!

نور باهر أغشى بصري في تلك اللحظة، شعرت بالعرق البارد يغمر رقبتي، والرجفة تملأ أوصالي. تجمدت في مكاني برعب، وانتظرت حتى ألفت عيني الضوء، لأكتشف أن سيارة توقفت على بعد سنتمترات من قدمي، وصوت سائقها يترجل منها، يرمقني لحظات مندهشا قبل أن يقول بصوت مرتبك وجل :

- هل أنت بخير ؟

فتاة قوطية

آخر واحدة قتلتها كانت عاهرة من (وايت شابل)، رابع امرأة في التحدي الذي ألزمت نفسي به.

تحدي محاكاة إنجاز (جاك).

(جاك السفاح) بالطبع.

بدأت اللعبة عندما زرت المكان لأول مرة، بالصدفة دخلت متجرا كئيبا لبيع التذكارات، ورأيت ذلك الخنجر القديم.

كان قد أعجبني شكله، قبل أن يلحظ البائع الجشع نظراتي المهتمة به، ويؤكد لي أنني أمام خنجره هو شخصيا، خنجر (السفاح).

واشتريته.

لم يفطن البائع الغبي لفكرة التحدي التي طرأت على ذهني. وقد أضفت اسمه إلى لائحة ضحاياي المستقبليين، سيموت بالخنجر الذي باعني إياه. أي ميتة رائعة ينتظر أكثر من هذه؟

نقدت البائع ثمن الخنجر، وغادرت المتجر وأنا متيقن من أنه سيخرج من خزانته خنجرا مشابها يعرضه لسائح مغفل على أنه خنجر (جاك السفاح) بذاته.

والسياح المغفلون كثر.

طرقت إذن، في هذه الليلة الباردة، شارع (دورست). بحثا عن ضحيتي الأخيرة – في هذه اللعبة طبعا - .هنا نفّذ (جاك) آخر جرائمه التي قذفت به على قمة أشهر المجرمين بالتاريخ. كان الضباب يغلف الأجواء، ضباب خفيف بارد لم ينقص شيئا من الحرارة التي أشعر بها في داخلي. وأنا انتظر بفراغ صبر العثور على فتاة مناسبة. ولعبة أخيرة أنهي معها التحدي الذي شغلني لأسابيع. صحيح أنني استمتعت كثيرا، وتضاعفت جرعات الإثارة مع كل فتاة أقتلها. لكن، ككل شيء جميل، هناك نهاية.

وإثارة قصوى.

وكان أن رأيت تلك الفتاة.

كانت تمشي متمايلة ثملة، تتقدم باتجاهي وهي ترتكز بيدها في كل مرة على الجدار. في شارع بدأت

ملامح الحياة تنسحب منه تدريجيا على غير العادة. حتى داهمني شعور مقبض بأننا وحدنا الآن.

ربما لأن عقلي وتركيزي توقفا عندها كثيرا.

كانت فتاة مختلفة، بشعر قصير، حلقة معدنية بأنفها وثلاث أخر بكل أذن. ترتدي تنورة قصيرة بحواشي بيضاء إلى فخدين شهيين. حذاءاها سوداوان بكعب عال، وتلبس صدرية بنفس اللون الأسود، تتوقف عند بطنها المكشوف بروعة لا يضاهيها سوى تفجر نهديها في الصدرية التي تطوق صدرها بإحكام.

باستثناء يديها، كان يبدو جسمها كله موشوما بكل أنواع الجماجم والرموز الشيطانية.

كانت فتاة قوطية . (*)

اقتربت منها بحذر، خوفا من أن تشك بي. لكن وعيها بدا مشتتا كما لو أنها أخذت جرعة مخدّر قوية للتو.

لم أنتظر لحظة واحدة، أخرجت الخنجر من جيب معطفي وزرعته في صدرها، بين نهديها بالضبط.

أطلقت الفتاة شهقة، وهي ترمقني بعين ذاهلة، قبل أن تلفظ من فمها بعض الدماء، كاشفة عن صفين من الأسنان البيضاء المتراصة، ولسان تتوسطه حلقة معدنية جديدة.

أدخلت الخنجر في صدرها أمنحه المزيد من العمق، وأدرته يمينا ويسارا، والفتاة تنتفض هاوية بين ذراعيّ كدجاجة مذبوحة. فكرت لحظة كم هي لقطة رومانسية !!

كانت عيناها الكبيرتان، وربما للمسكرة السوداء الكثيفة، تصرخان ألما، دمعة سوداء تفر من جفنها الأيمن. مع نافورة دم صغيرة عبر شفتيها.

أحسست بإثارة غير عادية، وانحنيت أقبلّها كما لم يقبل عاشق محبوبته من قبل، ومذاق الدم في فمها أعطى للقبلة طعما مختلفا، مميزا، فريدا.

(*) القوطية ثقافة استوحيت من ثقافة (البانك)، من السينما التعبيرية الألمانية، من الفانتازيا ومن الرواية القوطية. وتتميز بطابع كئيب قاتم وصادم أحيانا. يظهر هذا غالبا في طريقة اللباس المؤسسة على اللون الأسود والألوان القاتمة، إضافة إلى مسامير وحلقات معدنية ورموز تعتبر غرائبية، تترجم حسب درجة الوعي بكونها جذابة، صادمة، مرعبة أو شاذة وحسب.

لكن ثقل جسمها وهي تلفظ بقايا روح، جعل تقبيلها صعبا. نزعت خنجري من صدرها ومسكتها من شعرها الأسود القصير، ثم شرعت أمرر الخنجر على عنقها.

حين انتهيت من قطع الرأس، تركت باقي الجسد يتهاوى أرضا تحت قدميّ، وأخذنا نستمتع أنا ومحبوبتي ! شاعرا بمنتهى اللذة، منتهى الإثارة.

قبلتها مرة أخيرة، ثم حدقت في وجهها وملامحها، أحسست أنها تحبني، شعرت أنها تبتسم في وجهي، بادلتها الإبتسام بحب. منحتها قبلة خفيفة على خدها، ومسحت دموعها السوداء. ثم حضنتها بقوة بين ذراعيّ. شعرت بقلبي يدق، كقلب مراهق يحب أول مرة.

كانت رأس الفتاة معلقة أمسك بها من شعرها بيدي اليسرى، أمسح بيدي الأخرى الممسكة بالخنجر، دموع الإثارة التي فرت من عيني. أنظر للجسد الذي ما زالت دماء ساخنة تخرج من موضع قطع الرأس. كأنه يحسدني على محبوبتي.

ضحكت، أحسست بأنني مرهق، كالمنتهي توا من علاقة جنس عنيفة، رميت الرأس وأنا انتبه للمرة الأولى للشارع الفارغ. يبدو أن لا أحد رآنا يا حبيبتي.

أشعر بك يا (جاك)، بالمتعة التي حصلت عليها منذ كل هذه السنين.

وأنت تمارس فنك في أجسادهن.

ترسم بالخنجر لوحتك الخالدة، خنجرك كان ريشة الفنان.

كم كنت عبقريا !

اللعنة على هذا الضباب !

كنت على وشك المغادرة، حين أحسست بجسد الفتاة يتحرك خلفي.

مستحيل !!!

لقد قطعت رأسها فأنّى لها أن تتحرك.

لكن المشهد الكابوسي ألجم لساني، وأطار من عقلي كل متعة وإثارة. كان الجسد المحروم من رأسه ينهض واقفا كأن لا شيء حصل. يتجه بثقة نحو الرأس المفصولة التي دبت فيها الحياة فجأة بدورها، وهي ترمقني بنظرة مرعبة.

وقفت متجمدا من الرعب والفتاة تعيد رأسها مكانه، كما لو كانت تركّب رأس دمية (باربي). أي كابوس هذا ؟؟

اقتربت مني بخطوات واثقة، وملامحها بدأت تتغير، ملابسها تتحول كالسحر إلى ثوب طويل تفوح منه روائح القدم. خيل لي أنني رأيت هذا الوجه في مكان ما، في كتاب ما.

وجه (ماري بيرسي) !!! (*)

لقد درست كثيرا أسطورة (جاك)، وأعرف ما أراه أمامي الآن، لكنني بالقطع أحلم.

أعيش كابوسا.

اقتربت المرأة القاتلة حتى صارت بمواجهتي، وشعرت بأنفاس باردة تصدر منها، لست أمام كائن طبيعي أبدا. أنا أمام شبح.

شبح (جاكلين السفاحة).

قالت بعد ضحكة :

- نعم أيها المسكين .. أنا هي (جاك السفاح) .. أي شرف أن تعرف حل اللغز الذي حيّر عقول الجميع عبر التاريخ ؟ قبل أن تلقى حتفك .. بخنجري.

كان البائع الوغد محقا إذن ؟ أكـان يعلم حقا أنه باعني خنجر السفاح ؟ السفاحة ؟

(*) لم يكن احتمال أن (جاك السفاح) امرأة بالإحتمال الجديد، فقد سبق وبحثت سكوتلانديارد في هذه النقطة بعد أن رأى شهود عيان امرأة تهرب من مسرح جريمة السفاح الأخيرة (وضحيتها ماري جون كيلي)، لكن النظرية عادت بقوة للوجود في ماي سنة 2006 بواسطة البيولوجي (يان فيندلاي)، الذي عثر على عينتي ADN تحت طابعين من طوابع البريد، أثناء فحصه لخمسة عشر ظرفا يعتقد اعتقادا يقينيا أن السفاح مرسلها. وأكد أن العينتين هما لإمرأة واحدة. يجدر بالقول أن الشرطة آنذاك شكت في إمرأة تعمل مولدة أطفال تدعى (ماري اليانور ويلر) الشهيرة بـ(ماري بيرسي) المزدادة سنة 1866. وقد أدينت في أكتوبر 1890 بقتل زوجة عشيقها (فرانك هوج) وابنته الصغيرة، ورغم أنها ادعت براءتها فقد تم إعدامها في 23 ديسمبر 1890. ودفنت في مقبرة (نيوجايت) حيث ما زال قبرها موجودا، وعلى البروفسور (فيندلاي) الحصول على إذن من المحكمة بنبش القبر لمطابقة الـ ADN، للتأكد تماما من حل اللغز.

لم أقاومها وهي تنتزع من يدي خنجرها الذي ما زال يقطر بالدماء. تغرسه بصدري فأطلق شهقة وخدر يسري بجسدي تحت نظراتها المقيتة المنومة. أشعر ببطني تبقر وأحشائي الساخنة تتسابق للخروج.

ويبدو أنني تمسكت بخيوط الروح العنكبوتية، حتى غادرت السفاحة المكان يلتهمها ضباب الشارع الأسطوري، بعد أن مثّلت بجثتي كما كنت أفعل منذ قليل بجثة الفتاة التي أوقعتني في فخ الشبح.

الفتاة القوطية.

عبد العزيز أبوالميراث

المغرب

جميع حقوق النشر الإلكتروني محفوظة لصالح (دار رواية للنشر الالكتروني) وأي إعادة نشر إلكترونية دون وجه حق تعرض صاحبها للمساءلة .. موقع الدار على الشبكة العنكبوتية (http://rewaya.tk)